

2019

الأسس النظرية والفلسفية للأنظمة السياسية والقانونية

طارق حمو -

حتى تتمكن من دراسة الجذور والأسس الفلسفية للأنظمة السياسية والقانونية، فمن المهم الانطلاق من التصورات والفلسفات القديمة، بل وحتى الأديان والعقائد، في سبيل تقديم اجابة شافية وسرد تاريخي وفكري معقول، يمكن الحصول بعده على تصور شامل لكيفية تبلور الانظمة السياسية والقانونية الحالية.

bavesilan@hotmail.de

المركز الكردي للدراسات
بوخوم - ألمانيا
4/21/2019



حتى تتمكن من دراسة الجذور والأسس الفلسفية للانظمة السياسية والقانونية، فمن المهم الانطلاق من التصورات والفلسفات القديمة، بل وحتى الاديان والعقائد، في سبيل تقديم اجابة شافية وسرد تاريخي وفكري معقول، يمكن الحصول بعده على تصور شامل لكيفية تبلور الانظمة السياسية والقانونية الحالية.

ويمكن الانطلاق من العالم الهيليني في البحث عن الجذور النظرية والفلسفية للانظمة السياسية والقانونية. من المهم القول بأن الهيلينية هي في الأصل حضارة وثقافة طبعت مجموعة من القبائل والشعوب التي انصهرت بعضها ببعض في ما عرف عبر التاريخ بالأغريق. وقد طبعت هذه الحضارة المنطقة بسماة حضارية وثقافية وفلسفية، كما برع أهلها في فنون الحرب والفكر العسكري ووسائل وفنون خوض الحروب أو صد الهجمات. ومن هنا يمكن القول بأن " الهيلينية كانت حضارة قد خرجت إلى الوجود في أواخر العصر الألف الثاني قبل الميلاد، واحتفظت بشخصيتها منذ ذلك التاريخ حتى القرن السابع من العصر المسيحي. وكان أو ظهور لها على جانبي البحر الإيحي، وانتشرت من هناك إلى ما حول شواطئ البحر الأسود والبحر المتوسط، ثم اتسع نطاقها برا فتوغلت صوب الشرق إلى آسيا الوسطى والهند، وامتدت غربا إلى شواطئ شمال أفريقيا وأوروبا المطلة على المحيط الأطلنطي، بما في ذلك جزء من الجزيرة البريطانية " ¹.

وركز الأغريق في حياتهم على وجود الحاضرة، وهي نوع من التنظيم الذي يؤمن لهم العيش في تجمعات تحافظ على حياة أعضائها وتنظم شؤونهم، وخاصة فيما يتعلق بالمأكل والمأوى والأمن والسلامة. لذلك فقد كانت الحاضرات قد " وصلت إلى نقطة التوازن بحيث بدت في أعين الأغريق وكأنها الصيغة الوحيدة الصالحة: فقد كانت قادرة على تحدي كل المزاحات، وعلى مقاومة كل الطموحات. وعمد الأغريق إلى تصديرها إلى كل مكان، حسب استطاعتهم، وحتى الرومان أنفسهم

¹ - أرنولد توينبي: تاريخ الحضارة الهلينية. ترجمة: رمزي جرجس. مراجعة: د. صقر خفاجة. من إصدارات مكتبة الأسرة. القاهرة، مصر. الطبعة الأولى 2003 م. ص 19.

اعتمدها بعد أن أزالوا ما بها من اقليمية وضيق. وقد تحكمت يومئذ، وهي ما عليه في اغريقيا بطبيعة العلاقات الدولة " ².

وكان الأغريق يشرعون وجود العبيد، بل تذهب رؤى فلاسفتهم بأن وجود العبد والسيد، أو الخادم والمخدوم، إنما هو أمر فرضه نظام الكون، وفرضته الطبيعة. ولعل من أشهر من حاول شرعنة نظام الرق والإستعباد وفرض نزعة إلهية عليه، هو الفيلسوف أرسطو. وكان أرسطو يرى بأن " العبد الرقيق هو تملك آلة حيّة. وكل الكائنات، منذ ولادتها، مطبوعة بخاتم الطبيعة، فالبعض خلق ليقود، والآخرون خلقوا ليطيعوا. والرقيق اذا نظر إليه من زاوية الطبيعة، هو بالنسبة إلى معلمه بمثابة الجسد إلى الروح. وكل الذين لا يستطيعون ان يقدموا لنا غير نتاج اجسامهم واطرافهم، هم من المحكومين بنظام الرق، بحكم الطبيعة. ومن الأفضل لهم أن يقدموا خدماتهم من أن يتركوا وشأنهم " ³.

كذلك اتفق الفلاسفة والمفكرون الأغريق على أهمية القانون في تنظيم حياة المجتمع، فالتشريع المدعوم بالقوة مهم للغاية في حماية حياة ومال وعرض الفرد المواطن. وقد ربط الأغريق بين القانون والتشريع من جهة وبين السماء من جهة أخرى، فجعلوا الآلهة هي التي تحمي القانون وتفرضه على الرعية فرضاً. أي أن واجب إتباعه لهو أمر طبيعي وإلهي ملزم. ولا يحق لأحد أن يعارض القانون. لذلك وجدنا سقراط حتى وهو يواجه الموت يرفض إنتهاك ومعاداة القانون الذي حكم عليه بالموت. ومن هنا فقد كان " اليونان يرون أن لكل مظهر من مظاهر الكون، ولكل فرع من فروع الحضارة إلهاً أو آلهة تخلق تلك المظاهر والفروع، حتى الفنون كانت لها آلهتها التي اخترعتها وأهدتها إلى البشر، ومع أن كبار فلاسفتهم - كأفلاطون وأرسطو - كانوا يعرفون أن الحضارة لا بد أن تكون وليدة العقل والتجربة،

²- نفس المصدر. ص 12.

³- جان توشار: الأسس النظرية والفلسفية للأنظمة السياسية والقانونية منذ زمن الأغريق وحتى القرن العشرين. ترجمة: د. علي مقلد. منشورات دار الإستقلال للثقافة والعلوم القانونية. بيروت، لبنان. الطبعة الأولى 2001 م. ص 13.

إلا أن الفكر اليوناني العام كان يرى أن الحضارة كلها من منح الآلهة، وأن هذه الآلهة أهدتها إلى الناس وظلت ترعاها بعد ذلك " ⁴.

وبرع الأغريق، كذلك، في وضع الأسس الأولى للنظام الديمقراطي القائم على سيادة الشعب ولجوءه إلى الانتخاب من أجل تعيين الممثلين له. واستنبط الأغريق نظم الحكم الديمقراطية البدائية، فقالوا إنها الأوليغارشية والملكية والديمقراطية الشعبية. كذلك احتلت قيم ديمقراطية مثل "المساواة السياسية" و"المساواة الاجتماعية" حيزا جيدا في الفكر الاغريقي، وكتب الكثير من الفلاسفة والمفكرين الأغريق منذ هيرودوت حول هذه القيم، معتبرين إياها من بدييات المدنية والحضارة. كذلك فقد احتلت الحرية، كقيمة وميزة ميزت الاغريقي عن البربري، حيزا كبيرا في الفكر الأغريقي، حيث بحث المفكرون عن معنى هذه القيمة وكيفية ترجمتها على أرض الواقع، لكي تبدو واقعا يوميا معاشا يتلمسه كل فرد من المواطنين. و من هنا فإن " المفهوم الأغريقي للحرية يتميز بهذه الازدواجية ذات الحدين: حرية بحكم القانون وخضوع لحكم القانون. وقد حدد أرسطو الحرية بالنسبة إلى الفرد: أن يكون الفرد محكوما وحاكما بآن واحد، وهو يصل، من طريق آخر إلى صياغة المشكلة الأساسية للحرية الأخرقية التي ليست جذرية إطلاقا: إنها التمسك الارادي بنظام معين، وكل السياسات تعمل من أجل التوفيق بين النظام والحرية. ويرى البعض أن الديمقراطية الأثينية تبدو، تماما وكأنها تجاوزت نقطة التوازن هذه، لأن الأشخاص فيها لم يعودوا يجراؤون على إصدار الأوامر كما أنهم لا يريدون اطاعتها. وبحسب الرسمية الأفلاطونية، يموت النظام من جراء الإسراف في الحرية " ⁵.

كذلك فهم الأغريق بأن القوانين الانسانية ما هي في الأصل سوى قوانين صادرة عن الآلهة. وقد ظهر بعض الحكام الذين غيروا القوانين والأوضاع الطبيعية لصالح ما وجوده عدالة. وحاول هؤلاء الحكام المستبدون ترجمة إرادة الآلهة في شمول الخير على الجميع، واقضاء الفئات التي تحاول الاستئثار بالمال

⁴- د. حسين مؤنس: الحضارة: دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها. سلسلة عالم المعرفة الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت. الطبعة الثانية 1998 م. ص 71.

⁵- جان توشار: الأسس النظرية والفلسفية للأنظمة السياسية والقانونية منذ زمن الأغريق وحتى القرن العشرين. مصدر سبق الإشارة إليه. ص 21.

والحياة والطبيعة. ومن هنا فقد أدى " التطور الاقتصادي والاجتماعي إلى تمركز السلطة في يد حكام مطلقية عرفوا بالطغاة (*Tyrants*) الذين يعتمدون في كثير أو قليل على الشعب (*Demos*) المؤلف من المزارعين والتجار والصناع. واصطلاح طاغية (*Tyrann*) لم يكن له ذلك المعنى البغيض في ذلك الحين اذ كان المقصود به حاكم وصل إلى السلطة المطلقة عن طريق إقلااب، وكان نضالهم موجها ضد الطبقة الارستقراطية، فيذكر الطاغية إيسيلوس (حوالي 628.658 قبل الميلاد) كيف أنه حينما وصل إلى السلطة في كورنثة طرد الارستقراطيين وصادر أرضهم ووزعها على المواطنين الفقراء " ⁶.

وتميز الفلاسفة الأغريق بنقد الأفكار السياسية وتشكيل الدولة والحكومة، ووضعوا المراجعات والكتب حول النظريات الجديدة التي استنبطوها. ومن هؤلاء الفلاسفة أرسطو وأفلاطون وإيزوقراط وأغزوفون. وركز هؤلاء على وجوب سطوة الحكومة والدولة واقتدارها وضرورة ضبطها للأمن بالفرض والقوة على الأفراد، ومن هنا فقد " رأى سقراط أن الحكام يجب أن يكونوا من ذوي المعرفة أي من الفلاسفة. وقد نادى سقراط بمبدأ سيادة المعرفة لأنه رأى أن هذا المبدأ من السهل أن يصبح في تطبيقه مبدأ الحكم المطلق المستنير. كذلك فقد أولى أكرينوفون أهمية كبرى للشخصية القوية التي يجب أن يتمتع بها الحاكم. وقد أخذ أفلاطون هذه الأفكار وجعلها أساس نظريته السياسية، لأنه رأى أن الحاكم الفيلسوف أو المستبد المستنير هو الفرد الوحيد الذي لديه المعرفة الكافية لوسائل تنمية مواهب الأفراد الطبيعية، وتوجيه المجتمع نحو تحقيق أغراضه السامية. فهوبز كان يؤيد الحكم المطلق، وذلك لإقامة دولة قوية يسودها النظام والأمن، وقد كان لهذه الأفكار أثرها الواضح على بعض فلاسفة العصر الحديث، فهيجل يرى أن الحكم الأمثل هو الحكم المطلق المستبد الذي يجسد وحدة اتصاف الدولة بالصفة الكلية. إن رجل الدولة هو الفرد الذي يجسد مبدأ سلطة الدولة، ومن الواجب احترام الدولة وتقديسها واعتبارها إلهها على الأرض. إن إرادة الحاكم الفرد أو

⁶ - د. محمد إبراهيم بكر: قراءات في حضارة الأغريق القديمة. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. مصر. الطبعة الأولى 2002 م. ص 58.

الملك المستبد عند هيجل لا يمكن أن يتسرب إليها العسف والهوى، ذلك لأن هذا الملك المستبد يستقي سلطته من تقمصه لروح شعبه، وأن علاقته بهذا الشعب أشبه بعلاقة الله بالكلمة. من هنا يمكن القول أن هيجل قد أنبثق في ذهنه ذلك الحلم الأفلاطوني، ألا وهو حلم قيام الفيلسوف على رأس المدينة. وقد حوّت هذه الأفكار أخطار الديكتاتورية، وانحرف الحكام باسمها، على أساس أنهم ملهمون، ولا يخطئون، وأنهم جاءوا لإنقاذ الشعب، وهذا ما شوهد في بعض البلاد مثل إيطاليا موسوليني، وألمانيا هتلر، وإسبانيا فرانكو. ولعل تصور أفلاطون لرجل الدولة جعله ينظر إليه كرب أسرة يدير شؤونها لخير أفرادها جميعا. وهذا التصور هو أحدث ما وصلت إليه الأزمنة الحديثة من نظرة إلى الحاكم، وما مصطلح {كبير العائلة} عن أسماعنا ببعيد. إن الحاكم الذي يبرر حكمه بأبوته للمواطنين يعاملهم كما يعامل الأب أطفاله على أنهم قصر أو غير قادرين على أن يتخذوا قراراتهم بأنفسهم، ومن هنا يكون من حقه توجيههم، بل عقابهم إذا انحرفوا، لأنهم لا يعرفون مصلحتهم الحقيقية

" 7 .

وأثناء بحثه عن النظام الأفضل لحكم الدولة والشعب، يعطينا أرسطو رأيه وتفضيله للنظام السياسي أو الحكومة التي تحكم وتدير أمور الشعب، وهنا " يؤكد ويؤمن أرسطو بان النظام الأصح والاقرب إلى الكمال هو ذلك النظام الذي يحقق التوازن بين النظامين الديمقراطي والاوليغارشي، فيأخذ بكل وسط بينهما. ولهذا فإن أحسن الدول نظاما عند أرسطو هي التي تكون الطبقات الوسطى فيها أكبر عدد وأعظم قوة من الأغنياء والفقراء. وفي جميع الحالات التي قل فيها عدد أفراد الطبقة الوسطى من الحد الواجب وتغلبت عليها الطبقة التي تفوقها في العدد سواء كانت طبقة الأغنياء ام طبقة الفقراء، وتولت بنفسها تصريف الشؤون العامة، واذا ما سيطر الأغنياء على الفقراء أو الفقراء على الأغنياء لم تستطع هذه الطبقة أو تلك أن تقيم دولة حرة. ويقترح أرسطو وضع دستور مختلط أو اقامة حكم

7- د. فضل الله محمد إسماعيل: الأصول اليونانية للفكر السياسي الغربي الحديث. بستان المعرفة لطبع ونشر وتوزيع الكتب. كفر الدوار، مصر. الطبعة الأولى 2001 م. ص 14 و15 و16.

ديمقراطي، وهو خليط من الارستقراطية والديمقراطية ليمنع به هذه الديكتاتوريات المقيدة للحرية سواء اكانت ديكتاتورية الأغنياء أم الفقراء " ⁸.

ويميل أرسطو إلى مراقبة اوضاع الطبقات الحاكمة والتدخل لوقفها عند حدها في حال ركونها إلى الإستبداد والإستئثار والفساد، وهنا يرى أرسطو أن " مصلحة الأحكام السياسية تقضي بأن لا يتعاضم أحد ويسمو سموا مفرطا يهدد استقرار البلاد. لذلك على أصحاب تلك الأحكام أن يمنحوا مناصب بسيطة لمدة طويلة أو مناصب خطيرة يتسلمها أربابها لمدة وجيزة (...).، وإنه على أصحاب الدولة أن يحولوا بطريقة قانونية دون تفوق مواطن من المواطنين تفوقا مفرطا، معتمدا على قدرة أصدقاءه أو كثرة أمواله، وإذا لم يستطع القانون منع هذا، فإن هؤلاء الأشخاص يجب أن يتم نفيهم خارج البلاد " ⁹. ومن هنا نجد بأن الفكر الأغرقي متمثلا بفلاسفته العمالقة، هو من وضع اللبنة الأولى للفكر السياسي، وأسس الحكم والدولة على المبدأ الديمقراطي، وبناء المؤسسات وفصل السلطات والصلاحيات بينها.

روما وبدايات المسيحية:

حين الحديث عن تاريخ الامبراطورية الرومانية، من المهم القول بأن تاريخ روما القديم ينقسم إلى " ثلاثة عصور تقليدية وهي:

1- العصر الملكي: ويشمل الفترة الأولى منذ 753 ق. م حتى عام 509 ق. م.

⁸- مصطفى فاضل كريم الخفاجي: فلسفة القانون عند أرسطو. مجلة (مركز بابل للدراسات الانسانية) الصادرة عن جامعة بابل، العراق. المجلد الرابع. العدد 2. ص 354.

⁹- ولاء توفيق فرج: الديمقراطية في فكر أرسطو السياسي. مجلة (أوراق كلاسيكية)، الصادرة عن كلية الآداب، جامعة القاهرة، مصر. العدد الحادي عشر، 2012 م. ص 161.

2- العصر الجمهوري: وهو يستمر من عام 509 ق. م عام قيام الجمهورية حتى عام 44 ق. م وهو تاريخ اغتيال يوليوس قيصر آخر زعماء الجمهورية الرومانية. وتنقسم الفترة الجمهورية التي تزيد عن أربعة قرون ونصف إلى ثلاثة مراحل رئيسية:

أ - فترة العصر الجمهوري المبكر: الذي شهد نضج مؤسسات الحكم الجمهورية التشريعية والتنفيذية، والصراع بين طبقات المجتمع الروماني من عامة وأشراف، وأخيرا الكفاح الذي خاضته روما للدفاع عن كيانها واستقلالها ثم للتوسع على حساب جيرانها اللاتين والايطاليين، وتمتد هذه الفترة من 509 ق.م حتى 260 م.

ب - فترة التوسع الروماني في أرجاء المتوسط غربا ثم شرقا، وامتدت هذه المرحلة فيما بين 264 إلى 133 ق.م والتي بدأت بحرب روما ضد قرطاجة فيما عرف باسم الحروب البونية.

ج - عصر الثورة أو عصر الزعامات الرومانية وهي مرحلة امتدت من 133 ق.م إلى 44 ق.م.

3- العصر الإمبراطوري، وقد استمرت الجمهورية الرومانية نحوًا في خمسة قرون، انتهت بسلسلة من الصراعات الحزبية والحروب الأهلية، حتى وضع اوكتافيانوس حدا لها في عام 27 ق.م وذلك باستخدام نظام دستوري وسياسي جديد عرف بالنظام الرئاسي. ورغم أن اُكتافيانوس قد حافظ على هيكل النظام الجمهوري في جميع مظاهره، حيث:

- استمرار الانتخابات لجميع مناصب الحكم.

- الإبقاء على المجالس التشريعية.

إلا أنه اتخذ لنفسه منصبا جديدا يبتعد تماما عن الهيكل الجمهوري، وهو منصب المواطن الأول، أو رئيس الدولة، ولذلك فقد اصطلح على تسمية نظام اوكتافيانوس بالنظام الرئاسي. وفي واقع الأمر أصبح اوكتافيانوس - الذي لقب بأوغسطس فيما بعد - هو الحاكم الفعلي المتصرف في جميع شؤون الدولة. وجمع في يده كل سلطة سياسة وقضائية وعسكرية. ونظرا لأن سلطة القيادة العسكرية المطلقة أصبحت أهم صفة ملازمة لشخصية رئيس الدولة، فقد غلب على المؤرخين تسمية هذا العصر الذي بدأه أغسطس بأسم (الامبراطورية الرومانية). وقد أستمر النظام الامبراطوري منذ 17 ق.م حتى سقوط مدينة روما في القرن الخامس أمام غزوات القبائل المتبربرة في الغرب. في حين

استمرت الامبراطورية الرومانية في الشرق في مدينة القسطنطينية التي بدأ سلطانها يتقلص عن معظم املاكها في الشرق مع قيام الدولة العربية الإسلامية في القرن السابع الميلادي " ¹⁰ .

وقد استندت الامبراطورية الرومانية على مبدأ القوة والسطوة العسكرية في الحكم، وراحت تحتل البلاد وتخضع الشعوب المختلفة لحكمها. وقسمت روما رعاياها إلى قسمين: المواطنين العاديين والدهماء، أي أبناء الشعوب المغلوب على أمرها من التي احتلت روما أرضها. أما هذه الدهماء فهي " تقطن خارج الحاضرة، وتقع خارج القانون ولا تمتلك الحقوق المدنية أو السياسية، ولا تفرض عليها أية واجبات بالمقابل، والحدث الرئيسي في تاريخ روما القديم هو دمج هذه الدهماء بالحاضرة، وهي أولى تدابير الدمج والاستيعاب التي امتدت عبر تطور روما في مسارها لكي تصبح مدينة عالمية كونية شاملة. وابتداء من القرن الخامس وضع الغاء الملكية وتقدم هذه الشعوب إلى مرتبة الوجود السياسي، المتصارعين الكبيرين: وهما الدهماء وطبقة الآباء، وجها لوجه " ¹¹ .

وفيما يتعلق بالحقوق والسياسة، فقد عمدت روما إلى وضع انظمة تضمن حقوق المواطنين، وتضبط علاقاتهم بعضهم ببعض. وتضمنت الألواح الأثني عشر القوانين الرئيسية والخطوط العامة التي تحدد علاقات الناس بالدولة، وحكم وسطوة الدولة وضبطها للحياة العامة وحفظ الأمن والأمان وسلامة الرعية والدولة. وكانت لأوضاع الدولة وحالة العسكرة الدائمة أبلغ الأثر في وجوب سيطرة القوانين القوية المحمية من الدولة والرادعة، ومن هنا " وبعد تكاثر الحروب الأهلية صارت الأراضي الخاضعة لإمبراطورية روما بحاجة ماسة للهدوء. من هنا فرضت عقلانية جديدة نفسها: تقسيم، تصنيفات، سياسة مالية إصلاحية، تكامل في المكان، قلق في اتخاذ إجراءات حاسمة بعقلية جديدة وضعت في

¹⁰ - د. أحمد غانم حافظ: الامبراطورية الرومانية من النشأة إلى الإنهيار. دار المعرفة الجامعية. الإسكندرية. مصر. الطبعة الأولى 2007 م. ص 23 و24

و²⁵.

¹¹ - جان توشار: الأسس النظرية والفلسفية للأنظمة السياسية والقانونية منذ زمن الأغريق وحتى القرن العشرين. مصدر سبق الإشارة إليه. ص 53.

خدمة الإدارة في إيطاليا وفي الأقاليم. فالرقابة والتحقق والتوازن وإعادة الانطلاق، كلها أمور أتت للبحث عن فن حكم صحيح " ¹².

ويمكن متابعة تطور الحكم في روما عبر ملاحظة أسلوب كل حاكم والتعرف على أفكاره في الحكم ومعاملة الشعب، ونظرته إلى الحضارة الرومانية وعلاقتها بالعالم الخارجي، وقضية مواصلة توسيع رقعة الدولة عبر الهجمات العسكرية. فالحكام كاتون، وبانتبوس وبوليب وآل غراق وشيشرون كان لهم أساليب تميزهم في الحكم والإدارة وتثبيت القوانين أو التمسك بروح الفرد والشمولية في الحكم والتسيير. والجدير بالذكر أيضا " أن تراث الامبراطورية الرومانية لم يكن من خلق الشعب الروماني وحده ولا من خلق الفكر والتراث الهيليني فحسب، بل هو مساهمة بين التراث الأغرقي الروماني وتراث الشرق الأوسط القديم بدوله ذات التجارب العريقة والرائدة في مجال السياسة والفكر الحضاري، وأن روما في عصر الامبراطورية استوعبت كل هذه التجارب واستفادت منها لتفرض السلام الروماني العالمي. فمثلا كان أمام الامبراطورية الرومانية تجربة مصر التي أوجدت أول وحدة سياسية في وادي النيل عرفها التاريخ وذلك حوالي عام 3200 ق. م. كما وجدت أممها تجربة هذا البلد في انشاء الامبراطورية التي اكتملت وتدهورت إبان الألف الثاني قبل الميلاد، ومن حضارات بلاد ما بين النهرين (سومر، بابل وآشور) تعلمت روما كيف تقام الامبراطوريات بين القوميات والأجناس واللغات المختلفة دون تدخل في الوجود العنصري أو القومي أو الديني لهذه القوميات. ولا يمكن أن نتصور أن الفكر القانوني الروماني لم يأخذ من الفكر الشرق الأوسط التشريعي أو على الأقل من موسوعة حمورابي القانونية، والتي هي أول موسوعة تشريعية نظمت شئون الإدارة والمالية في بابل القديمة (1792 ق. م - 1750 ق. م) وأول موسوعة تشريع عرفتها الانسانية جمعاء. كما أن الحثيين قدموا للامبراطورية الرومانية نموجا يحتذى به في كيفية تنظيم الدولة داخليا عن طريق تنظيم فرض السلطة على كافة أجزائها. ومن الواضح أن روما استفادت أيضا من التجربة الآشورية

¹²- باتريك لورو: الامبراطورية الرومانية. ترجمة: د. جورج كتورة. دار الكتاب الجديد المتحدة. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى 2008 م. ص 28.

في التنظيم العسكري للامبراطورية. والجدير بالذكر ان الآشوريين كانوا أول من قسم الامبراطورية الخاصة بهم إلى ولايات قومية صغيرة مستقلة ذاتيا، لكن ترتبط بالسلطة المركزية عن طريق شبكة ضخمة من الطرق العسكرية. كما قدم الفرس تجربتهم في كيفية وضع التشريع العادل والانساني من أجل اسعاد شعوب الامبراطورية خاصة إبان عهدي قورش الأكبر ودارا " ¹³ .

وقد لعبت الفلسفة كذلك دورا كبيرا في رقي الدولة والمجتمع الروماني. فكان الرواقيون بأفكارهم الغنية يحركون الحياة الفكرية في البلاد. وقد شرعن هؤلاء الفلاسفة للحكم المطلق المتمثل بشخصية الملك / الامبراطور. ويمكننا أن نوجز ما وضعوه من أفكار تخدم سلطة ومكانة الملك في عدة خطوط رئيسية:

- الملكية الفردية هي بدون جدال وبدون شك النظام السياسي المثالي. ولم تعد المسألة كما هو الحال في الرواقية السابقة، مسألة تدعيم الملكية بعناصر ارسقراطية او جمهورية. ان الملك هو المختار من الله، وسلطته مستمدة من زيوس، وهو يعتبر ابنا للإله زيوس.

- ان سلطة الملك مطلقة ولكنها ليست كيفية تحكيمية. وكما تتميز حكومة زيوس بالنسبة إلى الرواقي بالنظام وبانتظام تحقيق القوانين الطبيعية، كذلك ارادة الملك يجب ان تتوافق مع القانون الأسمى: قانون العقل المستقيم أو اللوغوس.

- قال الرواقيون بأن علاقة الملك بالرعية هي علاقة الأب بأبنه، فهي تستوجب الطاعة والرحمة في آن واحد.

- الملك فوق القانون لأن سلطته مطلقة. ولأن القانون ليس إلا مشيئة الملك، لكن الملك هو من يمنح القانون قوته دون أن يكون له الحق في مخالفته.

وفي شأن ظهور المسيحية، فقد ظهر يسوع بين اليهود في أرض فلسطين التي كان يحكمها الرومان. وأظهر الجانب الانساني الشامل في رسالته، حيث لم تقتصر دعوته على اليهود فقط، بل تعدتهم إلى

¹³- د. سيد أحمد علي الناصري: تاريخ الامبراطورية الرومانية السياسي والحضاري. دار النهضة العربية. القاهرة. مصر. الطبعة الثانية 1991 م. ص 5 و6.

بقية أم الأرض، وظهر هذا النزوع للتبشير لكل البشرية حينما لاقى الرفض والصد من جانب رجال الدين اليهود الذين رفضوا الاقرار بأنه هو المسيح المنتظر الذي بشرت به التوراة، ومن هنا " ثمّة إبهام يحيط بموقف يسوع وأتباعه الأوائل تجاه التبشير في الأوساط اليهودية. وللوهلة الأولى ينشأ إنطباع بأن البشارة كانت مكرسة لليهود فقط (إنما جئت فقط من أجل الخراف الضالة في بيت إسرائيل. متي)، ولكنه حسب الرواية الأنجيلية، كان في غضون ذلك يشفي أبناء الأثنيات الأخرى ويدعوهم إليه: شفى خادم قائد المئة الروماني في كفرناحوم (لوقا)، وأبنة امرأة سورية - فينيقية دعاها إنجيل مرقس هيلينية، وتخاطب حسب إنجيل يوحنا مع امرأة سامرية. وكان اليهود الأصوليون يتجنبون هؤلاء (يوحنا). ومن الواضح أن سلوك يسوع هذا إنما يعكس تراجعاً عن الالتزام بالتقاليد اليهودية الصارمة من أجل تحقيق أغراض خيرة، والسعي إلى الانفتاح بتعاليمه على كل من آمن به. وبما أن ظهور مثل هؤلاء الناس يتوافق والواقع الذي كان قائماً في الإقليم الذي كان يسوع يبشر فيه بتعاليمه، إذ كان يقيم خليط من السكان (خاصة ضواحي المدن الفينيقية التي كانت تتمتع بالحقوق الاغريقية)، لذلك يمكننا أن نظن بأن المشاهد المعنية تنتمي فعلاً إلى أحداث واقعية حافظت عليها بحرص ذاكرة الرسل الذين بشروا فيما بعد بالمسيحية خارج فلسطين " ¹⁴.

وقد كتب الكثير في ماهية وجوهر العقيدة المسيحية، والعوامل التي أدت لتشكلها وتبلورها بالصيغة الحالية، وما هي المؤثرات التي وقعت المسيحية تحت تأثيرها، هل هي يهودية خالصة، وفي مرحلة لاحقة رومانية، أم ثمّة مؤثرات أخرى. وفي هذا الشأن يمكننا أن نورد " بأن الرأي المتفق عليه عامة هو أنه للوصول إلى فهم مبدأ المسيحية وجوهرها، وإلى إدراك الأسباب التي نشأت منها، لا يكفي استيعاب المراجع المسيحية والتحقيق المدقق في التفكير الديني والاخلاقي الاجتماعي بين أرجاء العالم اليوناني الروماني، حيث أُنبتق الايمان ونما وتطور، بل أن سر نشأة هذا الدين وطبيعته الأولى، يجب الرجوع في دراسة جوانب كثيرة منها إلى حضارات سوريا وآسيا الصغرى ومصر وكذلك بلاد

¹⁴ - إ. س. سفينسيسكايا: المسيحيون الأوائل والإمبراطورية الرومانية: خفايا القرون. ترجمة: د. حسان مخائيل اسحق. دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة. دمشق. سوريا. الطبعة الثانية 2007 م. ص 81.

ما بين النهرين، وكل هذه البيئة الشرقية التي ظهر فيها بادئ ذي بدء، ثم وجد العناصر الأولى للحياة والانتشار. والدراسات الوافية التي تتم في أيامنا هذه للنصوص المنقوشة وللوثائق التي يحملها الينا الخزف أو أوراق البردي، أصبحت تضيء جوانب كانت مجهولة من فقه (العهد الجديد)، ومن أخلاق وتقاليد وعادات دينية اختصت بها تلك الشعوب التي كتب العهد الجديد بواسطتها وكتب من أجلها. وان تقدم علوم الآثار الشرقية ليؤدي إلى عين النتيجة " ¹⁵.

وبمجرد عمل جردة سريعة للتاريخين اليهودي والأغريقي، للتعرف على كيفية تعاملها مع رسالة المسيح، نرى اختلافات جوهرية وبنوية في طريقة السرد والرصد، وهنا فنحن " نلمس نقطة هامة يختلف حولها نوعا التاريخ: التاريخ الإغريقي نقدي، في حين أن التاريخ اليهودي ليس كذلك. يجد التاريخ الإغريقي نموذج الأعلى في هيروت، ويسيطر الكاتب عليه ويعلق على الأحداث التي يذكرها: يقوم صوت الكاتب هذا بعمل مسافة بين الأحداث المروية واستقبال القارئ لها. هناك اختلاف جوهري إذ يعتقد كل من المؤرخين الإغريق واليهود أن عملهم هو بحث عن الحقيقة، ولكن المؤرخين الإغريق - الرومان يقرون حقيقة الأحداث، أما اليهود فيعرضون حقيقة الله الذي يسود العالم. التاريخ الإغريقي ينير والتاريخ اليهودي يعترف بمجد الله وتدخلاته. لذلك نقول ان التعليم في التاريخ العبري ليس عرضا، لأنه يختفي وراء طريقة التعبير. أما عند الإغريق فيلعب عرض الحقائق أدوارا عديدة " ¹⁶.

أما فيما يخص الفكر السياسي لدى المسيحية حتى مرحلة القديس أوغسطين، فقد ظهر العديد من الفلاسفة الرومان ممن بحثوا في العقيدة المسيحية، منهم سلس ورتوليان. وبدخول العقيدة المسيحية في أرض الامبراطورية الرومانية، واعتناق شعبها وأباطرتها لها، بدء نوع من الامتزاج يظهر بين الرومانية والمسيحية، ومن هنا فقد " استعادت الامبراطورية المثل الروحي الذي كان للحاضرة

¹⁵ - شارل جيبير: المسيحية: نشأتها وتطورها. ترجمة: د. عبد الحليم محمود. منشورات المكتبة العصرية. صيدا. لبنان. بدون تاريخ نشر. ص 19 و20.
¹⁶ - دانيال مرجير: تاريخ المسيحية الأول: قراءة جديدة في أعمال الرسل. ترجمة: الأب كميل وليم. دار الثقافة. القاهرة. مصر. الطبعة الأولى 2009 م. ص

القديمة: مثال عالم مغلق حيث تعتبر الآلهة جزءا من المجموعة السياسية. ويهدم التصور المسيحي، المستند إلى إرادة مصممة على إعلان قدسية الله وسموه، هذا العالم المطمئن المغلق على نفسه. وأصبح المسيحي الممثل والجندي لسلطة مجهولة، غير محددة الإقامة ومخيفة. إن رفض يمين الولاء هو أكثر من رفض الولاء، إنه في نظر الوثني، تأكيد على ولاء وإتقاء اجنبيين، إنه إنفصال " 17 .

لكن الفيلسوف ترتوليان قد استنبط صيغة جديدة حاول من خلالها التواء بين المسيحية وروح الامبراطورية الرومانية، وجعل الدين في خدمة الامبراطورية وتشريعاتها، ومن هنا " نحن نحترم في الأباطرة حكم الله الذي أقامهم لحكم الشعوب، نحن نعلم انهم بإرادة الله يمسكون بالسلطة التي تقلدوها. فهو ينصح بالطاعة، خصوصا في مادة الضريبة. وهو يشير حتى إلى ان المسيحيين هم مواطنون من النخبة الأولى لأن أديباتهم الأكثر تشددا تضمن لهم الاستقامة في مسلكهم. ولا يتردد، بحركة متسمة بالغلو، سوف تتكرر كثيرا فيما بعد، في الإشارة إلى ما تدين به الامبراطورية نحو المسيحية، وإلى ما يمكن ان ينتظره من المسيحيين، أن الامبراطور هو لنا أكثر مما هو لأي انسان آخر، لأن إلهنا هو الذي أقامه " 18 .

وظهر كل من أوريجين وأيسوب لكي يستكفلا محاولة التواء بين العقيدة المسيحية والسعي لرفق الامبراطورية الرومانية، مع إيجاد نوع من الفاصل بين ما هو ديني / روجي وبين ما هو دنيوي / تشريعي خاص بالنظام وبجياة الناس. ومن هنا فقد " تشبع أوريجين بالفكرة القائلة ان الامبراطورية قد سهلت انتشار الانجيل، وان حاضرة العالم قد مهدت الطرق أمام حاضرة الله، واذا تجاوزت مطامح الاهتدائية الكاثوليكية حدود الامبراطورية، فان قسما من الطريق يمكن ان يقطع سوية. ولهذا

17- جان توشار: الأسس النظرية والفلسفية للأنظمة السياسية والقانونية منذ زمن الأغريق وحتى القرن العشرين. مصدر سبق الإشارة إليه. ص 90.

18- نفس المصدر. ص 91.

فهو يستجلب باخلاص البركات على الامبراطورية. وهو يعتقد ان عقلاء الكنيسة يستطيعون حماية روما كما تشفع ابراهيم بسادوم " ¹⁹ .

ونأتي إلى الدور المحوري الذي لعبه القديس اوغسطين في التواء بين المسيحية كعقيدة وبين الامبراطورية الرومانية، التي هي سلطة مادية بشرية تخضع للقانون الوضعي. لقد حاول أوغسطين اسباغ نوع من الشرعة الدينية على القانون الوضعي، وترك أمور الدنيا تسير وفق أحوالها، بدون تدخل من رجال الدين والكنيسة، موضحاً بأن النظام والسلطة مباركة طالما تهدف لخدمة الرعية وتسير على طريق الهداية. كذلك استطاع أوغسطين احداث ربط بين الفلسفة اليونانية القديمة وبين الفكر اللاهوتي المسيحي، وحاول ازالة التعارض بينهما، بل واللجوء إلى قواعد الفلسفة الاغريقية واليونانية في الاستدلال على قدسية وقداسة المسيح والمسيحية، وبذلك اخضاع المواضيع اللاهوتية لسلطة العقل ومحاولة تجيير المنطق العقلي والتأمل والتفكير في الأمور الدنيوية لصالح البعد الروحي في المسيحية.

القرن الوسطى: المذهب التجريبي للحكم المقدس:

رغم ان الصراع بين المسيحية والوثنية خبي قليلا، الا ان الصراع بين المسيحية والسلطة الدنيوية متمثلة في الامبراطور وأركان حكمه قد نعى بشكل كبير. ويمكن ارجاع السبب إلى عوامل كثيرة، " ثم كان ان اخذت الكنيسة المسيحية تحصل - بصفتها راعية الديانة الرسمية للدولة - على امتيازات خاصة من الحكومة الامبراطورية. وأهم هذه الامتيازات حق الحصول على الهبات والاعفاء من الضرائب فضلا عن قيام الاساقفة تدريجيا في أقاليمهم بفضل مكانتهم الدينية من جهة وما جمعه من صدقات وهبات من جهة أخرى، لا سيما وأن الصدقات التي جادّ بها الخيرون كان يتم توزيعها على الفقراء

¹⁹ - نفس المصدر. ص 95.

والمحتاجين عن طريق الأسقف نفسه، مما أوجد طبقة من سواد الفقراء مستعدة لتنفيذ مشيئة رجال الدين " ²⁰.

وقد تميزت علاقة رجال الدين بالحكام بشيء من الاضطرابات والتوجس، حيث كانت الكنيسة تهدف دائماً إلى التحكم بالسلطة المدنية وممارسة الحكم والتمسك بالمؤسسات، بينما الامبراطور كان يحاول ان ينال رضى الكنيسة، مع ابقائها محصورة في خدمة الجانب الروحي فقط. لكن الكنيسة حاولت الدخول من بوابة شرعنة الحكم للحاكم واحلال صفة مقدسة عليه، وهو ما ساهم في ولاء الرعية باعتبار الملك هو من ينفذ رسالة المسيح على الأرض، ومن ثم درجت عادة وهي ان يقوم البابا بتتويج القصر على رؤوس الاشهاد، ومن هنا فقد " بدأ ظهور مملكة الفرنجة عام 751 م، عندما أرسل بيين القيصر ابن شارل مارتل رسله إلى البابا ليستفسر عما اذا كان من حق أحد من الملوك من لا حول لهم ولا قوة، ومن غير الأكفاء مثل الميروفنجيين أن يجعل الواحد منهم لقب ملك؟. وكان رد الباب عليه انه لا يحق لاحد منهم ذلك. وعندئذ عقد يبين عدة اجتماعات حيث تم تنصيبه ملكا باسم بيين الأول. وفي سنة 753 م قام الباب ستيفن برحلة إلى بلاد الغال وتوجه ملكا. وفي مقابل ذلك فإن بيين قام بزيارة ايطاليا، واستطاع الحاق الهزيمة بالمباردين أعداء البابوية، كما قدم أيضا هدية للبابا عبارة عن منطقة زراعية تقع وسط ايطاليا، لكي تصبح معروفة لحوالي ألف سنة باسم " الممتلكات البابوية". هذه الهدية لم تجلب للبابوات سوى القليل من الراحة مع الكثير من الويلات وهي التي تم تقليصها إلى المساحة التي تشغلها مدينة الفاتيكان " ²¹.

اذن فنحن نرى بان الامبراطورية الرومانية وبعد انتشار المسيحية فيها، قد تم ربط تاريخها ومصيرها بمصير وتاريخ الديانة المسيحية التي اثرت عليها تأثيرا كبيرا. ومن هنا يمكن القول بأن "مصير القرون الوسطى العليا سوف يكون لعبة هؤلاء الشركاء: امبراطورية، كنيسة، ملكية. الامبراطورية سوف

²⁰- د. سعيد عبد الفتاح عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. دار النهضة العربية. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى 1976 م. ص 46.
²¹- موريس بيشوب: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. ترجمة: علي السيد علي. المجلس الأعلى للثقافة في مصر. القاهرة. مصر. الطبعة الأولى 2005 م. ص 29.

تعمق جذورها في الماضي الروماني. ولكن الواقع المسيحي سوف يدمغها بصفة جديدة في الغرب كما في الشرق. والشرق يدمج كل هذه المقولات دون ان تستطيع الكنيسة فعلا تولي زمامها: ولم ينتقص خضوع الكنيسة في الشرق للامبراطورية من حظها في تألق الامبراطورية، ولكن الخلافات الداخلية اضعفتها واعدت لانفصالها عن روما. والامبراطورية في الغرب لم تكن شمولية الا لفترات، وعندما كانت تضعف كانت الكنيسة تحافظ على التراث الذي كونه فتعيد ترتيبه لصالحها: واقترب الوقت الذي استفادت فيه الكنيسة من ضعف شريكها الكبير، فرضت سيادتها. فضلا عن ذلك، جزأت الملكيات الامبراطورية بصورة تدريجية ونزعت عن الفكرة الامبراطورية رونقها واغراءها: وافتتح هوغ كابي عصرا لم يعد فيه الملوك يسعون لكي يصبحوا اباطرة، بل كان همهم ان يحكموا ممالكهم²².

القرون الوسطى: السلطة البابوية بين السلطات القديمة والجديدة:

تميزت هذه العصور بالكثير من الفوضى من جهة تراخي قبضة الكنيسة، ولجوء القساوسة إلى الترح المادي وتجيير سلطاتهم الدينية من أجل توطيد مصالحهم، بل الكثير منهم تزوج على مذهب العلمانيين. وسار الأمر هكذا حتى مجيء البابا غرغوار السابع، والذي اصدر أمرا للحد من هذا "التسيب" واعادة مجد وسلطة الكنيسة لها. وتضمن أمر البابا النقاط التالية: وحده الخبر الروماني يستطيع خلع الأساقفة والعفو عنهم. البابا هو الرجل الوحيد الذي يقبل الأمراء قدميه. يجوز له أن يخلع الأباطرة. لا يمكن تسمية أي مجمع بأنه عام دون أمره. لا يمكن لأحد أن يعدل حكم البابا وهو وحده يستطيع تعديل حكم الجميع. ليس لأحد أن يحاكمه. يستطيع البابا أن يجل من يمين الولاء المعطي للكفار. وكان الاقطاع في هذا العصر أقوىاء وسيطرون على الكثير من مفاصل الحكم والإدارة في العديد من الممالك والاقطاعات الأوروبية. وكانت الملكية قوية ولها سلطات كبيرة، وظهر المنظرون الذين يدافعون عن الملكية والملك، ومن هنا " فمن الملفت ان نلاحظ بروز المنظرين

²² - جان توشار: الأسس النظرية والفلسفية للأنظمة السياسية والقانونية منذ زمن الأغريق وحتى القرن العشرين. مصدر سبق الإشارة إليه. ص 125.

الأول للملكية اثناء المرحلة الاقطاعية: في فرنسا ظهر ابون منذ بداية القرن العاشر، وظهر ايق دشاتر في القرن الحادي عشر. وفي انجلترا خصوصا ظهر جان ديسلوسبوري في القرن الثاني عشر. فضلا عن ذلك كان هؤلاء الناس جميعا رجال كنيسة حريصين على عدم مخالفة البابوية، دون ان يضطروا مع ذلك إلى إهمال السلطة الملكية. وساعد كهنوتيون آخرون مثل سوغر على تركيز هذه السلطة بشكل أكثر فعالية أيضا، ولم يكتف شوغر بأن يكون المؤرخ الرسمي للملوك، بل كان المستشار النشط للويس السادس ولويس السابع. وعندما ذهب هذا الأخير إلى الحروب الصليبية تولى الأب سان دنيس مسؤولية ولاية العهد. ولم يتردد الإداري البارع في مجال الرعاية الكنسية في استخدام عبقريته لخدمة مملكة فرنسا. وكان الأب فلوري ابون قد خدم الملك على طريقته، وكان مفهومه للطاعة الواجبة على النبلاء وعلى بقية الرعية تجاه الملك مفهوما قاطعا: نظريا يعتبر انتخاب الملك حرا، ولكن بعد ان ينتخب ويرسم على الجميع طاعته. وابتداء من لحظة الرسم، يعتبر عصيان الملك كعصيان الله بالذات " ²³.

ومن المفيد الحديث عن قوة الاقطاع وتحكمه بالاغلبية الساحقة من أبناء الشعب، حيث ان الاقطاع، وبالتعاون مع من الكنيسة التي هي هنا السلطة الدينية، والملك أو الدولة والتي هي هنا السلطة السياسية والادارية، قام بفرض سيطرته على جموع الشعب التي لم تجد بدا من الانخراط في العمل لتأمين الرفاه والحياة الباذخة لهذه الفئة، ومن هنا " فقد كان المجتمع في العصور الوسطى منقسما إلى ثلاثة فئات هي: طبقة الأساقفة، وطبقة النبلاء، وطبقة الفلاحين، وكان يتوقع من الجميع الايفاء بالتزاماتهم، للحفاظ على بنية النظام الاقطاعي. وكان الفرسان المقاتلون - من طبقة النبلاء - هم من نتاج النظام الاقطاعي، أما الفلاحون فكانوا من نتاج نظام القرية الاقطاعية، بالرغم من التفاوت الطبقي بينهم. وبسبب تدافع الملوك والسادة على السيطرة والقوة، اضطر الأساقفة والفلاحون لإيجاد طريق لهم في خضم ذلك المعترك بالرغم من أنه كان يفترض في تلك الطبقات

²³- المصدر السابق. ص 143.

الانصياع لمن هم أعلى منهم منزلة ورتبة. وكان الأساقفة يعتبرون أن الطاعة هي للرب، وأن عليهم أن يتذكروا أن الأرباب الأرضيين (الملوك والسادة) ليسوا بأهمية الرب السماوي (الله)، ولكن على أرض الواقع كانت العديد من الأديرة تمتلك المساحات الشاسعة من الأراضي إضافة إلى الثروات الطائلة، وكانت لهم تكتلات سياسية ضاهت تكتلات البقعة الارستقراطية. ولكن ظهور بعض القادة العسكريين على كراسي الحكم جعلهم يساهمون أكثر مما ساهمت به الكنيسة في تحديد نموذج النظام الاقطاعي، لذلك فقد كان الاقطاع، كبدأ، قائماً على الثنائية في كل زاوية من زواياه، فالكنيسة والدولة كانتا تحكمان بشكل ثنائي كل من جمته، وكان كل طرف يحاول القفز على قوة الآخر، رابطين كل شعوب أوروبا ضمن هيكليات ثقافية معقدة، لكن خلال الفترة ما بين القرن السادس والقرن الحادي عشر عملت الكنيسة والدولة معا على منح العديد من الدول الأوروبية تنظيماً اجتماعياً واقتصادياً كان في حقيقته نموذجاً ثقافياً جديداً. أما الفلاحون فكان عليهم أن يعملوا في الأرض، وبدا فإن الطبقة السيادة المسؤولة عنهم، كان عليها الإيفاء بمسئولياتهم " ²⁴.

كذلك ظهر إطار الكومونة، وهو اطار ونظام اجتماعي ينظم العلاقات بين الجماهير والنخب الاقطاعية المتحكمة بوسائل الانتاج ومصادر الرزق، ورغم الطابع البرجوازي للكومونة، فإنه يمكن القول بأنها تبقى بشكل عام " الشكل الأكثر تقدماً في الاستقلال المدني داخل النظام الاقطاعي، ان لم تكن متناقضة له تماماً: وهي تشكل شخصاً معنوياً يجب ان يتعامل معه عمدة الاقطاعية. والكومونة كشخص معنوي تندمج أحيانا في النظام الاقطاعي لدرجة أمكن معها الكلام بشأنها سيادة جماعته. ويبدو هذا الدمج جلياً منذ الحين الذي ثبت فيه للبارونات وبصورة خاصة للملوك الربح الذي يمكنهم جنيه من المجمعات الكومونية بالنسبة لاستراتيجيتهم العسكرية أو السياسية " ²⁵.

²⁴- نيفين ظافر حسيب الكردي: الأوضاع الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية في الغرب الأوروبي من القرن التاسع حتى القرن الحادي عشر. أطروحة ماجستير مقدمة إلى قسم التاريخ والآثار بكلية الآداب في الجامعة الإسلامية بغزة. فلسطين. 2011 م. ص 167 و168.

²⁵- جان توشار: الأسس النظرية والفلسفية للأنظمة السياسية والقانونية منذ زمن الأغريق وحتى القرن العشرين. مصدر سبق الإشارة إليه. ص 150.

وجاءت الحروب الصليبية نتيجة دعوة البابا ملوك أوروبا إلى تخليص المسيحيين والاماكن المسيحية المقدسة في فلسطين مما أسماه ظلم العرب والمسلمين، واعلن النفير العام في كل ممالك واقطاعات القارة الأوروبية، حيث دعى المؤمنين إلى الحرب المقدسة في فلسطين، وبالإضافة إلى الوازع والشعور الديني لدى كل من سجل نفسه لحوض الحروب الصليبية في الشرق، ألا ان هناك اسباب اخرى منها الطمع في المكافآت والغنائم، وتصدير السكان لأرض جديدة، بعد الطفرة السكانية التي حدثت نتيجة التزايد الهائل في عدد الناس. وكان ذلك ثمة سبب آخر لهذه الحروب وهو اقامة اقطاعات جديدة للملوك والاباطرة وكبار الاقطاعيين، وهو ما جعل التجيش عاليا والمشاركة أكبر واوسع في حملات التجنيد الكبيرة.

وقد حدثت في تلك القرون احداث عظيمة في أوروبا منها صراع الكنيسة مع السلطة السياسية والعسكرية، ونمو الاقطاع وتوسع سلطات الامراء المحليين، واندلاع الحروب الصليبية وقرارات البابوات بعزل وتعيين العديد من الملوك والاباطرة. ولعل من المفيد هنا الإشارة إلى علاقات البابوات والحكام الاوروبيين أو المسيحية الغربية بالامبراطورية المسيحية الشرقية، والتي كانت القسطنطينية مركزها، وهنا فقد " دعى أوربان الثاني إلى وحدة روما والقسطنطينية حتى تم تحرير الأماكن المقدسة من أيدي الكفار، وأجاب امبراطور الشرق، وقد رأى المكاسب التي يمكنه جنيها لحسابه من مثل هذا التحالف، بالايجاب على مقترحات البابا. ولكن بيزنطة سرعان ما أظهرت أكبر الحذر تجاه الحروب الصليبية(..). أن فكرة الصليبية غريبة تماما عن العالم البيزنطي الذي كان يخشى ان ينقلب المشروع بالنهاية ضده. وقد تحققت هذه المخاوف، في نهاية الحملة الصليبية الرابعة تم الاستيلاء على القسطنطينية من قبل الصليبيين سنة 1204 م. وكانت دهشة الصليبيين عظيمة أمام ثروة امبراطورية الشرق المغلقة على نفسها. فقد لعبت بيزنطة دور الحافظ لعظمة روما القديمة بنجاح

26 "

تدهور القرون الوسطى:

بدأت حركة الفكر والنهضة تتضح من بين ركام العصور الوسطى، والتي تميزت بسيطرة الكنيسة والاقطاع والحكام المتجربين على رؤوس العامة. ورغم صعوبة المهمة والقبضة القوية التي لم تتراخي بعد للسلطين الدينية والديوية والتجبر في الحكم، والبطش بكل من يرفض كلمة الكنيسة وقرار الملك، فإن المراجعات بدأت في العديد من المناطق والامارات الأوروبية، واتضح بان عصر القرون الوسطى بدأ بالخفوت لصالح صوت التجديد والدولة المدنية القائمة على حكم الجماهير وكلمتها. ومن هنا ومنذ " الربع الأول من القرن الرابع عشر، وحتى آخر الحقبة تقريبا، أدت الأزمة الاقتصادية القاسية قسوة تختلف نوعا ما بحسب الامكنة والازمنة، الى الجمود المادي أن لم تؤد إلى خراب طبقات شعبية عريضة. وقضى الطاعون الأسود الكبير سنة 1348 م والأوبئة المتفرقة خلال العقود التالية على ثلث السكان تقريبا في بلاد كفرنسا وانجلترا، وأربكت سيكولوجيا الجماهير، وعقبتها الاضطرابات السياسية والايديولوجية. وأدت الفضيحة التي سببتها بذخ الكنيسة وانقساماتها إلى تمزق المسيحية. وتعددت الحروب بين الأمراء وطالت، مزعزة الرأي العام، وكان المسرح السياسي في ممالك أوروبا مملوءا بالصراعات العنيفة المأساوية حتى أن الشعب لم يستطع عن يمتنع عن اعتبار الملكية كسلسلة من الاحداث الدموية أو المغامراتية، وأكملت الطوائف الجديدة حركة العلمنة التي انطلقت في العصور السابقة، ولكن دون التوصل إلى توازن صحيح " ²⁷.

وثمة اختلاف كبير بين المؤرخين في الفترة الفاصلة التي شهدت نهاية العصور الوسطى، وبداية العصر الحديث، فهناك فريق يعد سقوط القسطنطينية على يد الأتراك العثمانيين عام 1453 م بانه النهاية الفعلية للعصر الأوسط، في حين اتخذ فريق آخر من عام 1492 م وهو عام اكتشاف كولومبس للقارة

27- جان توشار: الأسس النظرية والفلسفية للأنظمة السياسية والقانونية منذ زمن الأغريق وحتى القرن العشرين. مصدر سبق الإشارة إليه. ص 169.

الأميركية (العالم الجديد)، حدا فاصلا بين العصرين الأوسط والحديث، وهناك فريق آخر يعد عام 1517، وهو عام خروج المصلح الديني مارتن لوثر على الكنيسة الكاثوليكية حدا فاصلا بين العصرين. و" يمكن القول بأن الفترة الأخيرة من العصر الأوسط شهدت تحولات سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية كبيرة ادت إلى انتقال أوروبا إلى العصر الحديث، وقد حدثت هذه التحولات في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، والذي شهد أحداثا هامة مثل حرب المائة عام بين انكلترا وفرنسا وسقوط القسطنطينية، واكتشاف العالم الجديد في القارة الأميركية، وسقوط غرناطة في عام 1492 م واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح عام 1497 م، حيث أدت هذه الاحداث إلى بزوغ فجر عصر جديد رسمت صورته النهضة الأوروبية والاستكشافات الجغرافية وحركة الاصلاح الديني، والذي عرف لاحقا باسم العصر الحديث"²⁸.

وقد بدأت أوروبا مع نهاية هذا العصر، وبشكل خاص في فرنسا، تتخلص من النفوذ الكنسي لصالح الاصلاحات في انظمة الحكم والادارة، والتفت الناس إلى حياتهم باذلين كل الجهد من أجل تحسين ظروف المعيشة، بدل التفكير في الامور الروحية والانشغال في القضايا اللاهوتية والخوض في الروحانيات والماورائيات، وبدأ صوت العقل يرتفع رويدا رويدا.

تجدد الأفكار في الصراعات السياسية في القرن السادس عشر:

تميز القرن السادس عشر بأنه عصر بداية الاصلاح الديني وانطلاق العديد من الافكار النهضوية التي ترفض سيطرة الفكر الديني الجامد وحليفه الاستبداد الزمني المتمثل بالملك وبسلطة الدولة على الحياة العامة. فضلا عن ذلك كله فقد بدأت حركة التجارة والصناعة تتسع، وبدأت المدن تأخذ رونقا جديدا، حيث الحياة أكثر تناغما وحرية. وبدأت الرأسمالية التجارية تحرك الأموال مما ساهم في

²⁸- جفري برون: تاريخ أوروبا الحديث. ترجمة: علي المزروقي. الأهلية للنشر والتوزيع. عمان. الأردن. الطبعة الأولى. 2006 م. ص 23 و24.

انعاش الاقتصاد ورواج التجارة وزيادة الانتاج واشغال الايدي العاملة البسيطة، مما نشر نوعا من الرخاء النسبي الذي رافقه شعور بالتححر والانعتاق. وعليه فإننا " لا نستطيع أن نعطي إجابة بسيطة ونهائية على السؤال التالي: لماذا ازدهرت العلوم الطبيعية عند هذه النقطة بالذات من الزمان والمكان؟. ومثلما كان الوضع في الاجابة على السؤال المماثل لماذا انشقت حركة الاصلاح البروتستانتية في القرن السادس عشر عن الكنيسة الكاثوليكية في الغرب بصورة لم تحدث بالنسبة لأي حركة من حركات الخواارج الدينية الأخرى، نقول أن هناك، يقينا، الكثير من المتغيرات التي تنطوي عليها هذه الحركة. ومن أهم هذه المتغيرات العامل الاقتصادي ونمو اقتصاد نقدي مركب يديره ويوجهه رجال الاعمال الرأسماليون (أصحاب المشروعات). وقد رأينا كيف كان رجال الأعمال شغوفين بالتجديد، راغبين في وقف الأموال والمنح على البحث العلمي لا تثنيهم عن ذلك الطبيعية الوضعية لكثير من العمل العلمي، عازفين عن الارتباط بأهواء التعليم الكلاسيكي " ²⁹.

ويمكن اعتبار القرن السادس عشر بانه قرن التجديد والتفاعل السياسي من حيث الافكار والرؤى الجديدة في عالم الحكم والادارة. ومن هنا " فلاشك ان القرن السادس عشر كان قرن التجديد، وكان كذلك ايضا في مجال الافكار السياسية، ومع ذلك يجدد قياس هذه التحديدات قياسا صحيحا. وتكونت عقيدة ذات اتصال بالسلطة الملكية في بعض الدول، مبنية على فكرة هي الاطلاقية، التي تميزت للوهلة الأولى بالتأكد على سيادة ملكية بدون حد ورقابة، لا تعترف للرعية إلا بحق الطاعة، هذا المفهوم بدا متعارضا تماما مع النظريات السياسية المرسومة في المجتمع الاقطاعي، مع ان الشرع الروماني، الذي استمدت منه هذه العقيدة ظل من الناحية الايديولوجية في حالة تبعية للديانة المسيحية، خصوصا وان توازن القوى الاجتماعية والظروف المادية والوضع التقني، كل ذلك وضع في وجه قيام سلطة مركزية، لدرجة ان الاطروحات الاطلاقية التي تحتمل مع ذلك تأويلات مختلفة

²⁹- كرين برينتون: تشكيل العقل الحديث. ترجمة: شوقي جلال. مراجعة: صدقي خطاب. من إصدارات عالم المعرفة. سلسلة شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت. دولة الكويت. الطبعة الأولى 1982 م. ص 123.

اختلافا واسعا، لاقت معارضا حادة جدا. وتجب الملاحظة ان النزاعات كانت تمزج المسائل الدينية بالمسائل السياسية " ³⁰.

وعلينا ايضا ان نلقي نظرة إلى الوضع العام في اوروبا عند حلول القرن السادس عشر، أي التعرف على ماهية الحالة السياسية والاجتماعية في الممالك والامارات والاقطاعات الاوروبية، حيث ان الخروج من عصور سيطرة الكنيسة وقبضة الدولة الصلبة، إلى عصر جديد فيه افكار جريئة وبداية تطور اقتصادي وتجاري واضح، يحتاج إلى القاء نظرة على المشهد العالم، ومن هذه النقطة يمكننا القول بأن " أوروبا كانت في بداية القرن السادس عشر فسيفساء من الاجسام السياسية المتنافرة جدا، فإلى جانب الممالك المنظمة بصورة مختلفة، ولكنها متينة الرسوخ في استقلالها القومي، وجدت جمهوريات مدنية، واقطاعات نشأت حول مدينة، وامارات علمانية أو أكليركية كان استقلالها الذاتي في المانيا فعليا يمثل ما هو عليه في ايطاليا التي تخلصت حتى من وهم الحكم الامبراطوري. فبعد تفكك الامبراطورية المقدسة، وتهاوي المطامح البابوية في الادارة الزمنية للمسيحية ترسخت الصفة القومية في الملكيات بوضوح تجلى في فرنسا وفي انكلترا. وجاء الاستيلاء على غرناطة يوطد وحدة المقاطعات الاسبانية. وفي الطرف الآخر من أوروبا وفي نهاية صراع طويل استعادت السويد استقلالها الشامل، وذلك بكسر الاتحاد السكندنافي على مستوى اعرق من مستوى التركيبات السلالية، التي بها تحققت التحولات. اقتطع تنوع الاوطان في خارطة المسيحية، كتلا شديدة التماسك على الرغم من عدم وضوح أطرها " ³¹.

وظهر في القرن السادس عشر مفكرون عديدون ساهموا في رقد فكر النهضة وانهاء سطوة الكنيسة والاستبداديين الديني والسياسي. ومن هؤلاء كلود دي سيسل في فرنسا، صاحب كتاب (الملكية الكبرى في فرنسا)، وهو مؤلف نشره سيسل عام 1519 م، وعبر فيه عن وجوب جعل الملكية في

³⁰- جان توشار: الأسس النظرية والفلسفية للأنظمة السياسية والقانونية منذ زمن الأغريق وحتى القرن العشرين. مصدر سبق الإشارة إليه. ص 196.
³¹- نفس المصدر السابق. ص 196.

فرنسا دستورية مقيدة ذات صبغة ديمقراطية ارسنقراطية. ويركز سيسل في كتابه على ضرورة وجود ثلاثة كواجب لضبط السلطة الملكية وهي: مقتضيات الضمير عند الملك، والسمة المسيحية في الملكية، والبرلمانات والقوانين الصالحة، والاعراف والارادات التي يصعب كسرهما أو تقييدها. وكذلك ظهر في ايطاليا عالم السياسة الأشهر نيكولاي ميكافيلي (1469 - 1527 م) والذي ألف كتابه الشهير (الأمير) لكي يقدم دروسا للحاكم في كيفية الحكم والادارة وتدبر شؤون الرعية دون الخشية من الفشل او ان يتقلب عليه هؤلاء. كذلك ظهر المفكر اراسم من روتردام (1467- 1536 م) وهو صاحب العديد من المؤلفات في السياسة والدولة واصول الحكم والاجتماع. وتوقف اراسم روتردام على الحرب وحذر منها، مع اعترافه بانه لا مناص من الحرب فيما لو تعرضت الدول للعدوان وفرضت عليها الحرب فرضا، فهي اذن لا تملك سوى الدفاع عن نفسها. وكذلك ظهر توماس مور (1480 - 1535 م)، وقد عارض الملك هنري السابع، وقد دفع حياته نتيجة الايمان بافكاره في احداث نوع من التوائم والتماهي بين العقيدة الدينية الروحانية وبين اساليب الحكم والسياسة. كما وظهر فرنسيس دي فيتوريا (1480 - 1546)، وكان لاهوتيا وقانونيا، اظهر جرأة كبيرة في الخوض في الكثير من المسائل والأمر اللاهوتية الصعبة والشائكة. كذلك ظهر مارن لوثر (1483 - 1546) مؤسس البروتستانتية، والذي دعى جموع المؤمنين للعودة إلى الأصول الأولى للمسيحية وترك تعاليم الكنيسة الكاثوليكية التي شابتها في رأيه الكثير من العبادات والطقوس البعيدة عن الروح المسيحية الحققة. وطالب لوثر بالتمسك بجوهر العقيدة وليس بالمظاهر الخارجية. كما وظهر جان كالفن (1509 - 1546 م) وهو لاهوتي هدف إلى تحرير الدين المسيحي من النظام السياسي التقليدي. وألف كتابا اسماه (المؤسسة المسيحية) مقتربا فيها من الفكر اللوثيري.

إنتصار الاطلاقية:

من المهم القول بأن القرن السابع عشر هو حقا قرن الأزمات والاضطرابات والحروب. فهذا القرن شهد حرب الثلاثين سنة (1618- 1648 م) وتنفيذ حكم الاعدام بشارل الأول. وقد خرجت

الإطلاقية من ردهات هذه الإلزامات ولكنها بدت غير قوية وغير ثابتة. ففي هذا العصر بدأت إنجلترا تتطور اقتصاديا وتجاريا وصناعيا، وتتوسع في البحار وتنشئ مرائى جديدة. أما الإمبراطورية الإسبانية فكانت تسير على هدى الكاثوليكية، وترى في الملك الأساس المقدس الذي لا ينبغي أبدا أن يدنس. كما وظهر في هذا العصر فلاسفة ومفكرين كبار مثل هوبز وسبينوزا ولوك وغروسيوس. وقد توقف كل من هوبز ولوك على الفكر السياسي فيما يخص بناء الدولة وعلاقتها بالمواطنين، والعلاقة مع الحاكم، حيث اعتبر هوبز الدولة صاحبة الحق في احتكار القوة والبطش للحفاظ على حياة وإملاك الناس، بينما ذهب لوك إلى وجوب تفاعل المواطنين وتمتعهم بالحرية، والالتدخل في كل كبيرة أو صغيرة. وهو خلاف النظام الجمهوري الديمقراطي الذي نعرفه الآن، " فالنظام الجمهوري الديمقراطي يتحدد طبيعته في كون السيادة هي لجميع المواطنين، ومن ثم يكون قانون الاستفتاء إجراء مهما لتسيير الحكم. أما مبدأ ومرجع هذا الحكم، حسب مونتسكيو، فهو أولوية الفضيلة. ويتحدد في المصلحة العامة على المصلحة الفردية. ومن ثم فإن هذا الشكل من النظم يحتاج إلى أسناده تربويا، وذلك بتربية الفرد على أن يتحرر من أنانيته، وأن يجب حكومته ويشعر بأن غيره يساويه. فأفراد الشعب في النظام الديمقراطي متساوون تماما كما هو الحال في النظام الاستبدادي، لكن الفارق هو أنهم في النظام الديمقراطي كل شيء، لكنهم لا شيء في النظام الاستبدادي. وطبيعة الحكم في النظام الديمقراطي يعتريه الكثير من السلبيات والمحاذير، ويشير مونتسكيو إلى أن ثمة خطرين اثنين يجب الاحتراس منهما: الأول: الديماغوجية والثاني: الرشوة. أما الجمهورية الأرستقراطية فإن السيادة ليست لعموم الشعب، بل لفئة النبلاء، وهي فئة لها امتياز خاص بحكم أصلها والتربية التي حظيت بها. وهذا النوع من الحكم، حسب مونتسكيو، هو ديمقراطية محددة ومبدؤها الاعتدال. بينما السيادة في النظام الملكي فهي لشخص واحد، لكن مع وجود قوانين ومؤسسات وسيطة. تلك المؤسسات التي كلما تم التقليل من سلطتها كلما اقترب النظام الملكي من الاستبداد. وفي النظام الاستبدادي تكون السلطة في يد شخص واحد (الحاكم). ويتأسس هذا النوع من الحكم على الجهل،

لأن خضوع الأفراد يستلزم جهلهم، ومن ثم فالتعليم خطر بالنسبة لاستمرارية هذا النوع من أشكال الحكم، فطاعة الشعب وخضوعه للمستبد لا تتحقق إلا بشيوع الجهل " ³².

فالاطلاقية تعني ان يتولى الحاكم والقانون والدولة سير الحياة والاشراف على نمط العيش والادارة، وان سلطاتها كاملة، وعلى الفرد الولاء مقابل حماية الدولة لحياة ومال هذا الفرد، وعدم السماح باستباحته من قبل أية قوة اخرى. ومن هنا فان " المشكلة الاساسية التي نشأت لدى الفلاسفة بشأن الاطلاقية هي الاستبداد والتسلط، ولم تكن علاقة الدين بالدولة، فالاطلاقية تدعي انها شرعية، لانها مستمدة من تفويض إلهي، ولذلك فإن جبروتها بلا حدود، أي الحكم المطلق، لأنه مستمد من الله، ولذلك ظهرت مشكلة الملكية، وعلاقة هذه الملكية بالقوانين وبالسيادة وبالمساواة. أي ان الاطلاقية صارت تصطدم مع تطور المصالح واتساعها، ولم تعد منحصرة بالملكيات الملكية ذات السياسة، فالسيادة، حسب بودان مثلاً، مطلقة ولا تتجزأ، والقانون الصادر عنها أقوى من أي شيء ويقول: ان السيادة المطلقة المعطاة للأمرء وللأقطاعات السيدة المستقلة لا تمتد إلى شرائع الله وإلى القوانين الطبيعية " ³³.

تهاوي الاطلاقية:

بدأ نجم الاطلاقية يخفت. لقد حدثت مواجهة بين الملكية واتباع الجانسينية في فرنسا. هذا غير الحرب مع البروتستانت والقوى الارستقراطية. وأوروبا فقد ظهر الفيلسوف الهولندي سبينوزا، والذي عرى الحكم واثبت بان حرية الانسان هي نهاية كل حكم شمولي، بما فيها الدولة نفسها. كما بشر ليينتز بفلسفة الأنوار القائمة بدورها على الحرية والتحرر من ربق كل القيود من سلطة ودين. كذلك

³²- د. الطيب بوعزة: نقد الليبرالية. مطبوعات مجلة البيان. الرياض، السعودية. الطبعة الأولى 2009 م. ص 69.
³³- د. نبيل ياسين: تاريخ الديمقراطية: حكم القوانين لا حكم الأشخاص. منشورات مركز البحرين للدراسات في لندن. 2012 م. ص 12 و 13.

شهدت انكثرا نقاشات مستفيضة بين رجال القانون والفلسفة والسياسة حول الحريات واقامة جمهورية طوباوية قائمة على الحرية بدون سلاسل او قيود.

ولعل الفيلسوف الفرنسي باسكال كان الأبرز الذي بحث في وجوب احداث الفصل بين سلطات الحكم و حياة الفرد وحرية ككينونة مستقلة بحد ذاتها لها الحق في الخضوع الديني، ومن هنا فإن " الكلمة الأخيرة لباسكال لم تكن الرفاع عن الاطلاقية. ان سياسته يجب أن توضع في اطارها العام من فكرة المداح: تفاهة هذا العالم، شقاء الانسان بدون الله، عدم واقعية السياسة، فالانسان لا يمكن ان يهتدي إلى مكانه، في أي موضع، بدون نظام التسامح الذي يسمو بكل الانظمة الانتقالية وفي تعميم الكنيسة التي تسمو فوق كل الحضرات الوهمية. وهكذا يظهر فارق أساسي بين نظام السياسة ونظام التسامح والمحبة. ويهاجم باسكال في كتاه اللامبالاة، والطمأنينة والفكر الراضي، والتفائلية العقلانية وأوهام الحق الطبيعي " ³⁴.

واستنادا على رؤى وأفكار رينيه ديكارت، ظهرت مجموعة أخرى من الفلاسفة ورجالات القانون والاقتصاد حيث طوروا مبادئ ونظريات في بنية الدولة وحرية الانسان والعلاقة مع السلطة والحكم، وهذه المجموعة هي " مجموعة الفلاسفة التجريبيين الانكليز، والذين اتجهوا في طريق يبدو أكثر منطقية من طريق الآخرين: فهم يقبلون بالمذهب الميكانيكي، وهو ما يتفق مع اتجاههم التجريبي، ويوسعون من تطبيقه ليشمل العقل نفسه، ويقولون بالاتجاه الذاتي وبالاتجاه الاسمي المتطرف. وقد وجدت هذه الأفكار على نحو غير واضح عند فرنسيس بيكون (1561-1626)، ولكن الذين وضعوها في عرض منظم هم جون لوك (1632-1754) وجورج باركلي (1685-1753) وعلى الأخص ديفيد هيوم (1711-1776). ويرى هذا الأخير أن النفس ما هي إلا حزمة من الصور، هي التي نسميها أفكارا. هذه الأفكار هي وحدها التي يمكن أن تعرف معرفة مباشرة، أما القوانين

³⁴ - جان توشار: الأسس النظرية والفلسفية للأنظمة السياسية والقانونية منذ زمن الأغريق وحتى القرن العشرين. مصدر سبق الإشارة إليه. ص 279.

العامة فهي ليست الا نتاجا للقدرة على الارتباط التي تظهر بفضل العادة. وبالتالي فليس لتلك القوانين العامة أية قيمة موضوعية. وهكذا فإن هيوم يرى أن محض وجود عالم حقيقي لا يقوم إلا على الاعتقاد، ولا يجمي هيوم من الشك المطلق إلا أخذه بمذهب الاعتماد على الايمان. وفيما عدا هذا، فإنه يشك في كل شيء: في العقل، في الحقيقة، وفي المعرفة على الأخص. في نفس هذا الوقت، أدى تقدم العلوم الطبيعية إلى ميلاد التصور المادي للكون، الذي تطور واتسع طالما لم يجد أمامه أية فلسفة معارضة تقاومه. وهكذا فإن المذهب المادي، الذي بشر به توماس هوبز (1588-1679) من قبل، ازدهر في فلسفات بونية (1720-1793) ولامتري (1709-1751) وهولباخ (1723-1789) وديدرو (1713-1784) وهلفتيوس (1715-1771) " ³⁵.

لقد ساهمت التيارات الفكرية والتجاذبات الحاصلة في الحقل الفكري دورا كبيرا في التشكيك في الاطلاقية والملكية والكنيسة، وبرز دور الفرد والتركيز على الحريات والتحرر والديمقراطية وبقية القيم التي تدور حول الفرد كقيمة سامية هي الهدف والمبتغى من وراء نشوء الدولة وترسيخ نظامها السياسي. فالدولة والنظام والحكومة هم في خدمة الفرد الحر المستقل الإدارة وليس العكس.

قرن الأنوار:

شهد القرن الثامن عشر نمو البرجوازية الأوروبية. وقد ساهم كل من التقدم الصناعي والتجاري والثورة الزراعية والزيادة الكبيرة في وسائل الانتاج في توطيد دعائم البرجوازية وبناء المدن وانتعاش الاحوال العامة لكل الناس. فقد انتعشت كل قطاعات العمل، وبدا الجميع مرتاحا، حيث ظهر التفكير بالجوانب السياسية والفكرية والروحية. وبالنسبة لوضع انكلترا، يقول الفيلسوف الفرنسي فولتير عن هذه المرحلة: " التجارة أغنت مواطني انكلترا، وساعدت على جعلهم أحرارا، وهذه الحرية

³⁵ - إ. م. بوشنسكي: الفلسفة المعاصرة في أوروبا. ترجمة: د. عزت قرني. من إصدارات عالم المعرفة، وهي سلسلة كتب شهرية تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت. الطبعة الأولى 1992 م. ص 25 و26.

ساعدت بدورها على توسيع التجارة، من هنا تكونت عظمة الدولة". ومن هنا يمكن القول بأن " الثورة الانكليزية اعطت في القرن السابع عشر، بما شهدته من صراع بين المصالح الاجتماعية والبرامج السياسية، دفعا قويا لتطور الايديولوجيا البرجوازية لاحقا. كما ساهم المفكرون الانكليز في القرن السابع عشر، وفي مطلع القرن التالي، على نحو لا يستهان به، في تكوين الافكار السياسية البرجوازية. لكن التصور البورجوازي للعالم لن يجد تعبيره الواضح والمكتمل إلا في القرن الثامن عشر، وفي فرنسا ما قبل الثورة تحديدا. ففي القرن الثامن عشر بلغ تطور الفكر البرجوازي ذروته. أما تطور الوعي الطبقي فقد تم على نحو متفاوت. وقد بلغ ذروة حدته عندما أضخى التطور اللاحق للقوى الانتاجية ولعلاقات الانتاج المناظرة لها مستحيلا في إطار البنية الاجتماعية القديمة، أي في المراحل الثورية أو ما قبل الثورية. وقد مرت البورجوازية، في القرن الثامن عشر على وجه التحديد، بهذه المرحلة من التطور المكثف لوعيها الطبقي في سائر الميادين. لهذا السبب تبرز سيورة تكون الايديولوجيا البرجوازية في القرن بوضوح فائق ونادر. فالبورجوازية التي كانت تستعد للمعارك الفاصلة ضد النظام الاقطاعي، وتهيء الايديولوجيا اللازمة للصراع المرتقب، عمدت إلى التركيب بنوع ما بين مكاسب القرون المنصرمة، وأدارت ظهرها نهائيا لتصور المجتمع الاقطاعي القديم للعالم. وقد انعكس التغيير الطارئ على العلاقات الاجتماعية، وزيادة الوزن النوعي للبرجوازية، على سائر مجالات الحياة والفكر. فقد طرحت الطبقة الجديدة، السائرة نحو فرض هيمنتها وانتزاع مقاليد السلطة، طرحت نمط حياة جديدا، واخلاقا جديدة، قائمة على التفاؤل، وتصورا جديدا للعالم. لقد نمت افكار جديدة حول الكون، والانسان والمجتمع والدولة وأرست جذورها أعمق فأعمق. كما ظهرت أذواق وحاجات جديدة، بورجوازية، في حقل الابداع الفني. وقد اتسم منتصف هذا القرن، من الاربعينات إلى الستينيات، بنشاط فكري هائل من أجل وضع نظريات فلسفية واقتصادية واجتماعية تهدف إلى إخضاع الحاضر لنقد مطلق، وإلى رسم دروب التطور في المستقبل. وإلى هذه السنوات تعود الأعمال الأساسية لكبار المفكرين الماديين الفرنسيين، وبداية نشر الموسوعة، والمؤلفات الاقتصادية للفيزيوقراطيين، وتأملات روسو ورواياته. أما السبعينات والثمانينات فقد

شهدت تبلور النتائج العلمية، الثورية بالطبع، لهذا العمل الضخم: فقد صيغت خلالها المطالب السياسية العينية وشعارات الانقلاب الكبير المرتقب " ³⁶.

كذلك ظهرت مؤلفات وآراء كثيرة في القيم التي تعتبر من صميم حياة ووجود الانسان مثل العقل والسعادة والفضيلة والحرية وغيرها. وقدم مونتسكيو كتابه الرائد (روح القوانين)، والذي استلهم فيه إلى حد بعيد التجربة الانكليزية في الحكم والإدارة، مع اعتماده بشكل واضح على التاريخ الفرنسي وتراث الأمة الفرنسية العريق. ومن هنا يمكننا القول، استفاضة وشرحا عن مونتسكيو، انه " ليس في أفكار مونتسكيو السياسية أي شيء من الثورية. فالحرية عنده تقوم أساسا على الأمن. والمكسب الوحيد الذي يمتاز به شعب حر على آخر هو الأمن، حيث يعرف الكل ان نزوة الحاكم الفرد لا تستطيع أن تحرم الفرد من أمواله ومن حياته. المساواة المطلقة هي حلم. فبمقدار ما نبعد السماء عن الأرض، كذلك تبعد روح المساواة الواقعية عن روح المساواة المطلقة. ويجب ان لا نخلط بين الشعب والرعا، ومن حسن التدبير عدم اعطاء حق الاقتراع لأولئك المتواجدين في حالة من الانحطاط، عميقة جدا. حتى في الحكومة الشعبية يجب الاتع السلطة بين يدي الرعا. ولكن مونتسكيو، وان بدا محافظا متنورا، ألا انه لم يكن من أنصار الليبرالية المطلقة، أي مبدأ درع الامور تجري في أعنتها (*Laisser Faire*). وهو المبدأ الذي نادى به الاقصاديون الليبراليون، وكل الذين تذرعو بأفكاره من اجل الدفاع عن النظام البورجوازي. إنه كان يعتقد ان الدولة ملزمة بتأمين المعيشة لكل المواطنين، الغذاء، والملبس اللائق، ونمط الحياة، الذي يتمشى مع قواعد الصحة(..). ويعتبر مونتسكيو في هذا المجال ان الدولة يجب ان ترعى بذاتها العناية بالمرضى والشيوخ واليتامى، وأن عليها ان تفتح المخازن العمومية، وأن تحارب الفقر" ³⁷.

³⁶ - ف. فولغين: فلسفة الأنوار. ترجمة: هنرييت عبودي. مراجعة: جورج طرابيشي. دار الطليعة للطباعة والنشر. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى. 2006 م.

ص 7 و 8.

³⁷ - جان توشار: الأسس النظرية والفلسفية للأنظمة السياسية والقانونية منذ زمن الأغريق وحتى القرن العشرين. مصدر سبق الإشارة إليه. ص 313.

ولانكلترا مكانة خاصة في التنوير الأوروبي، فهي المتقدمة ديمقراطيا ولديها تجربة برلمانية رائدة، وهي من قدمت العشرات من المفكرين الكبار الذين وضعوا لبنة التنوير، وأسسوا له على المستوى الأوروبي العام. وكانت ميادين التفوق الانكليزي كبيرة، مقارنة بالوضع المزري للدول الأوروبية الأخرى، ومن هنا يمكن القول " ان ثمة ميدانا آخر تجلى فيه التفوق الانكليزي، ألا وهو ميدان نيوتن. وقد أضيف إلى تأثير بريطانيا العلمي والدستوري في عصر التنوير جون لوك العظيم، الذي سبق له أن قدم تلك الشروح الكلاسيكية للحرية الانكليزية، ثم عاد الناس ليمطروه بالمزيد من أكليل الغار، حالما أصدر في عام 1690 م، مؤلفه المعروف بعنوان (مبحث في الفهم البشري). والحق أن هذا المبحث قد يكون الوثيقة الوحيدة على المبادئ الأساسية للنظام الجديد، حيث رأت أوروبا قاطبة فجره يطل مع إطلالة القرن الثامن عشر. لا شك ان اسم جون لوك اسم لمفكر متفوق وجليل، يستوي مع نيوتن مكانة في عصر التنوير. وإن مبحثه في الفهم البشري لهو أوسع كتبه شهرة، حيث دُعي ببيان عصر التنوير. ونحن اذا تعمقنا في البحث عنم كان له أشد التأثير في حقبة التنوير، نجد أن لوك هو واحد من أعظم رجال الفكر الذين عرفهم التاريخ البشري. وهو جدير بأن نضعه في مصاف أفلاطون وأرسطو وأوغسطين في السلف، وفي مرتبة روسو وماركس وداروين وفرويد من الخلف. والحق أن مبحثه في الفهم البشري، كغيره من المؤلفات العظمى في الفلسفة السهلة على الفهم الشعبي، اذا اخضعناه للنقد فإنه سيتكشف عن الكثير من التناقضات الذاتية الظاهرة، لكن ينبغي علينا ألا نترك للمدخل المبالغ في الشكليات أن يضللنا. وإن لتلك التناقضات الذاتية لدى لوك فوائد سيكولوجية. ومن المفارقات أن نجد مناهج الفكر المتناسكة منطلقا من التصديق لدى الناس، أقل مما تجده المناهج الأقل تماسكا في منطقتها من تلك. وإن من أبرز فضائل لوك هو ذلك الأسلوب المذهل الوسيط بين الفلسفة والانسان العادي. وقد لاحظ جورج سنتيانا على ذلك قائلاً: انه لو كان عقل لوك أكثر عمقا، لكان أقل تأثيرا ونفوذا. وإن مواهبه في وضوح الفكر وفي قضاء التحليل والممزوجة بحس سليم مرهف قوي وثابت، والمتجلية في مباحثه السياسية، قد تجلت

أيضا في هذا المبحث الأوسع شهر من تلك، حيث حاول لوك او يوضح لنا كيف تعمل عقولنا، وما الذي ينبغي أن تعمل فيه وعليه " ³⁸.

وقد قدم كل من ديفيد هيوم وآدم سميث ومالتوس نظريات أساسية في حقول الفكر والاقتصاد والاحصاء، كانت بمثابة الأساس المتين والانطلاقة للثورات الحاصلة الآن في هذه العلوم، ولا احد من علماء هذه الحقول ينكر فضلهم أو يستطيع القفز فوق نتاجاتهم السابقة.

أما جان جاك روسو صاحب كتاب (العقد الاجتماعي) فيحوز على مكانة كبيرة بين مفكري عصر التنوير، وهو الذي استكمل نظريات هوبز ولوك في الدولة والحكم، وتوسع فيها بشكل كبير، وقد " أيد روسو أكثر من غيره من أبرز الشخصيات في القرن الثامن عشر وجهة النظر التي تقول بوجود علاقة بين السياسة والأخلاق والتي استقاها من اليونان القديمة. وأفترض أنه اذا كان بالإمكان عزو فساد أخلاق أهالي البندقية المعاصرين إلى فساد حكومتهم، فإن فساد غيرهم من الشعوب بالمثل يرجع إلى حد كبير للجرائم السياسية والاضطهاد الذين تمارسها حكوماتهم. وفي كتاباته الأولى، حاول روسو أن يتعقب أصول ذلك الانحطاط الأخلاقي على مدار فترات زمنية أوسع وأكثر تباعدا تاريخيا من خلال التجريد الفلسفي للظلم السياسي الراهن. لقد كان على قناعة بأنه ما دامت أزمة الانسان الحديث في ظل أغلب الحكومات الماصرة خلقتها ظروف سياسية، فإن الدول التي تتبى مبادئ سياسية مغايرة يمكنها في المقابل جعل مواطنيها ينتهجون سلوكا أفضل، مما يتمخض عنه إحلال الفضيلة محل الرذيلة. وفي مؤلفه (العقد الاجتماعي) المنشور في ربيع عام 1762، رسم روسو بناء على ذلك سيناريو ملهما للاجتماع السياسي يختلف تماما في طبعه عن رؤيته للمجتمع المدني في الخطاب الأول والثاني. والحقيقة أن (العقد الاجتماعي) يبدو أنه يتناول الفكرة المحورية ل(خطاب عن المساواة)، ولكن بطريقة عكسية، حيث يرسم الخطوط العامة لعقد للاجتماع السياسي يجمع بين

³⁸- رونالد سترومبرج: تاريخ الفكر الأوروبي الحديث (1601-1977). ترجمة: أحمد الشيباني. دار الفارئ العربي. القاهرة. مصر. الطبعة الثالثة. 1994 م. ص 156 و157.

المواطنين بدلا من أن يفرقهم، ويحافظ على قيم المشاركة العامة العادلة التي تدعم حريتهم بدلا من أن تدمرها. وبعد أن عرض روسو من قبل مراحل الفساد الأخلاقي للبشر في المجتمع المدني، طرح هنا بالتفصيل على نحو توجيهي لحجته السابقة ولكن بشكل عكسي عن طريق رسم صورة للمؤسسات الضرورية لحصول المواطنين على حريتهم. وبوضع الأسس الدستورية للسلطة السياسية الشرعية بأشكال مختلفة ملائمة للظروف المتباينة، استطاع أكثر مواطني جمهورية جنيف فخرا بانتمائه لها شجعي النظم الاستبدادية الملكية الحاكمة في عصره، وفي الوقت نفسه تقديم مخطط للدول التي ربما تتحقق فيها الفضيلة السياسية من خلال تجمع رعاياها معا كي يحكموا أنفسهم بأنفسهم " ³⁹.

الفكر الثوري:

من المهم هنا التوقف عند الحدثين الأكبرين في تلك العصور، ألا وهما الثورة الأميركية والثورة الفرنسية. وقد حدثت الثورة الأميركية على أثر إعلان الاستقلال في 1776 ومن ثم الاعلان عن الدستور الأميركي في 1787 وطبعا كانت هناك أسباب مباشرة لهذه الثورة. ومن تلك الأسباب الاعباء الضريبية التي اقرها البرلمان البريطاني على كاهل سكان أميركا. والخلافات بين سكان المقاطعات ومجالسها التي تمثل الجماهير. وبدأت الثورة الأميركية ذات صبغة سياسية وإدارية فقط، حيث انها لم تحمل أي رسائل أو ايديولوجية، ولم تتمسك بعقيدة محددة. وكانت مطالب الأميركيين تبدو وكأنها لا تخالف الدستور الانكليزي ومبادئ البرلمان التي وضعها لوك. ولكن الثورة الأميركية نجحت في خلق الشخصية الأميركية الجديدة المستقلة عن الشخصية البريطانية، حيث ان بريطانيا كانت ترى في أميركا كجزء منها ومن المواطن الأميركي كصنوه البريطاني تماما. وكان لفرانكلين (1706 - 1790) الدور الأكبر في توطيد دعائم الشخصية الأميركية والذهاب بالأمة نحو الاستقلال التام عن بريطانيا، مدعوما بالمساعدة والتأييد من فرنسا.

³⁹- روبرت وولكر: روسو: مقدمة قصيرة جدا. ترجمة: أحمد محمد الروبي. مراجعة: مصطفى محمد فؤاد. مؤسسة هندواوي للتعليم والثقافة. القاهرة. مصر. الطبعة الأولى 2015 م. ص 72.

والثورة الأخرى هي الثورة الفرنسية المشهورة. فهذه الثورة التي بدأت سنة 1789 " قلبت المؤسسات الفرنسية إلى حد بعيد، وساهمت في تغيير المؤسسات الأوروبية. ولكن القليل من التأليف في العقيدة السياسية ظهر في فرنسا بين سنة 1789 وسنة 1810 والكتب التي ظهرت كانت متأخرة جدا بالحادث العظيم، هل يجب القيام بالثورة، أو المجاهدة ضدها، أو العيش ببساطة حيث أن الحرب والاضطرابات تترك القليل من الخيار للمفكرين، كما انها تعزل عن الأمة الايديولوجيين المحترفين (...). ان الشعارات والكلمات والافكار السياسية التي نعيشها اليوم، لم تتكون في سنة 1815 وسنة 1830 بل بين 1789 وسنة 1815، خصوصا بين الاستيلاء على الباستيل و 9 ترميدور، فالعيد الوطني والنشيد الوطني يعودان إلى هذه الحقبة. وأكثر من ذلك ان بعض المفاهيم كاليمين واليسار والوطن والأمة المسلحة لم تنشأ إلا في الحقبة المذكورة " ⁴⁰.

ونجحت الثورة بعد كبوات كثيرة، وخرجت الجمهورية عبر ارهاصات عديدة تعيد للشعب حقوقه، لكن مع احتفاظ الطبقات البرجوازية بقسم كبير من سطوتها وممتلكاتها، حيث ان لم يتم استبعادها بعد الثورة، وفي هذا الصدد يمكن الاشارة إلى " ان فرنسا كانت قبيل الثورة لا تزال بلدا زراعيا بصفة أساسية، ولذا كانت البورجوازية فيها أقلية واضحة، أما العمود الفقري للطبقة الثالثة فكان من الفلاحين واجراء المدينة. وقد قادت البورجوازية الفرنسية هذه الطبقات الشعبية في الثورة الفرنسية واستفادت منها أكثر مما استفادت الجماهير نفسها، وهذا معنى قولهم ان الثورة الفرنسية كانت ثورة بورجوازية، أي ثورة الطبقات المتوسطة، العليا والوسطى والصغيرة " ⁴¹.

تأملات حول الثورة:

⁴⁰- جان توشار: الأسس النظرية والفلسفية للأنظمة السياسية والقانونية منذ زمن الأغريق وحتى القرن العشرين. مصدر سبق الإشارة إليه ص 354.
⁴¹- د. لويس عوض: الثورة الفرنسية. الهيئة المصرية للكتاب. القاهرة. مصر. الطبعة الأولى 1992 م. ص 64.

سوف نستعرض أهم الأفكار حول الثورة الفرنسية. فالثورة الفرنسية، حتى وبعد كل هذه السنوات الطويلة التي مرت عليها، والتقدم الحاصل في فكر الانسان من ناحية الادارة والحكم وتوطيد القيم الديمقراطية التي تضمن المشاركة وحرية الرأي والعمل السياسي، إلا انها مازالت تحتفظ ببريقها، ويمكن تقديم عدة قراءات لها والغوص في أسبابها وحيثياتها. ومن هنا يمكن القول " ان الثورة الفرنسية، - وإن لم تنقض بالحقيقة سوى شيء يسير من مقومات الماضي - أعانت على انكشاف بعض المبادئ التي استمرت على النمو، ومن هذه المبادئ: مبدأ المساواة الذي أصبح انجيل الأمم، أي صار قطب الاشتراكية والديمقراطية في الوقت الحاضر، وبهذا نقصد أن نقول ان تلك الثورة، التي لم تنته بظهور الامبراطورية ولا بالانظمة التي ظهرت بعد الامبراطورية، انتشرت بالتدرج مع الزمن، ولا تزال ذات سلطان على النفوس " ⁴².

وفي انكلترا ظهر العديد من المفكرين والساسة الذين قدموا مراجعات وقراءات للثورة الفرنسية، وبعضهم تحامل على هذه الثورة، مشككا في القيم التي قدمتها، معتقدا انه مهما حصل فلن تسبق فرنسا الفهم والتطبيق البريطاني للحرية والمساواة، ولن تقدم قويا وأحكام أفضل وأرقى من القيم والاحكام الانكليزية، التي تستند إلى تاريخ عريق في ممارسة الديمقراطية. ومن هؤلاء ظهر المفكر والسياسي الانكليزي بورك (1729- 1797)، والذي كتب مشككا دائما في الثورة الفرنسية وتراثها الديمقراطي والقيمي. وقد كتب " اني أعلق حكمي على الحرية الجديدة السائدة في فرنسا إلى حين استعلامي عن كيفية تطبيقها من قبل الحكومة، وعن ماهية نظرة السلطة العامة وتوافقها، ومع الانتظام العام ومع الانضباط العسكري، ومع انتظام وتوزيع المدفوعات العامة الفعلية، ومع الاخلاق والدين، ومع ضمان الملكيات، ومع السلم وحسن التنظيم، ومع الآداب العامة والخاصة (...). وندرك من خلال هذا القول الدوافع الدائمة التي تحمل بورك على تفضيل القيم العملية، باعتبارها الحارسة والضامنة الوحيدة للنظام الطبيعي، رغم قبوله نظريا بالقيم الكونية الكلية. والفكر المنفعي الذي طبع

⁴² - غوستاف لوبون: روح الثورات والثورة الفرنسية. ترجمة: عادل زعيتر. كلمات عربية للترجمة والنشر. القاهرة. مصر. الطبعة الأولى. 2013 م. ص 19.

انكلترا في القرن الثامن عشر بطابعه العميق هو الذي يقوده أحيانا إلى حجج تقترب من حجج المكيفيلية. وفي جدول ظاهر التناقض يقارن بين الثورة الفرنسية، وهي هندسة متعجرفة، قائمة على صحيفة بيضاء، وبين الدستور الانكليزي الذي لا تكمن حكمته العميقة في بعض القواعد أو المبادئ فقط، بل في تناسق العادات والأعراف والمؤسسات المتأسكة، المستقرة عبر العصور، تناسقا واسعا ومرهفا. وهذه المؤسسات دون أن تناقض إحداها الاخرى، تراكت وانسجمت وتمازجت محدثة بصورة طبيعية الحوار المتعاقب بين الأحزاب السياسية التي يقوم دورها بأن واحد على تحفيز وتوازن هذا الجهاز الحي الذي هو الدستور البريطاني. هذه المقارنة بين الدستورين والحريتين هي الشاشة العميقة التي رسم عليها بورك، بمناسبة الثورة الفرنسية أهم المواضيع في فلسفة محافظة⁴³.

كذلك دافع العديد من المفكرين الألمان عن الثورة الفرنسية، وكتب فيها الفيلسوف هيغل كلمة مؤثرة، يشيد بها. ولكن هذا الإعجاب لم يدم طويلا، حيث ظهرت مواقف اخرى ناقدة لما تلى الثورة من احداث ومتغيرات اصابت الكثيرين بالاحباط. وترتبط تلك المواقف بالأوضاع السياسية والاجتماعية التي كانت سائدة في ألمانيا آنذاك، وبالحرور الامبراطورية التي بدأت فرنسا الثورة تشنها على الجيران، ولاسيما الحرب على الامبراطورية البروسية، وهو الامر الذي جعل العديد من المفكرين والفلاسفة ورجالات الدولة والحقوقيين يعيدون النظر في التطبيقات العملية التي جاء بها من يعتبرون أنفسهم ورثة الثورة الفرنسية وحاملي قيمها. ومن هنا ظهرت انتقادات ومراجعات كثيرة من قبل فيخته وغيره من الفلاسفة الألمان.

حركة الأفكار السياسية حتى سنة 1848:

⁴³ - جان توشار: الأسس النظرية والفلسفية للأنظمة السياسية والقانونية منذ زمن الأغريق وحتى القرن العشرين. مصدر سبق الإشارة إليه. ص 370 و 371.

سنحدث عن الافكار التي سادت أوروبا ومنها انطلقت إلى العالم، وهي الاشتراكية والليبرالية والقومية. ومن هنا فإن " الكلمات الرئيسية في القرن التاسع عشر هي: الليبرالية والقومية والاشتراكية. والليبرالية هي ايدولوجيا الطبقة البورجوازية التي استفادت من الثورة الفرنسية. أما في ألمانيا وإيطاليا وأوروبا الوسطى والشرقية فلم تتم الوحدة القومية وظلت تحكم الارستقراطية، وكان الليبراليون في المعارضة واختلطت الحركة الليبرالية بالحركة القومية خلال النصف الأول من القرن. وهكذا وجد معا أمدا طويلا شكلا من الليبرالية متميزان أو ضح تميزهما: الليبرالية المرفهة التي يعبر عنها مذهب مانشستر، والليبرالية المناضلة التي تلهم المغلوبين الدائمين من جميع الحركات الثورية في ألمانيا أو في إيطاليا. ولم تتم الوحدة الألمانية أو الوحدة الإيطالية على أيدي الليبراليين، بل قامت ضدهم إلى حد ما. إذ غيرت القومية طبيعتها، فاضحت محافظة بعد أن كانت ليبرالية، بل غدت أحيانا رجعية صراحة. وظهرت دول جديدة على خريطة أوروبا وفي أميركا اللاتينية. واخذت تتجابه أقواها في سبيل السيطرة العالمية، وغدت القومية امبريالية. وبسطت أوروبا - أي قبل كل شيء انكلترا وفرنسا - نفوذها على مجموع العالم، وتشكلت الامبراطوريات الاستعمارية أو أعيد تشكيلها، وانفتح الشرق الاقصى على التجارة الأوروبية وعلى الأفكار الغربية. " ⁴⁴.

وقد ظهر اتجاه فكري وأدبي وفلسفي سمي بالاتجاه الرومنسي، حيث كان له كتابه ومروجوه بين الجماهير، وبشكل خاص في فرنسا. وتميّز هذا الاتجاه بتمجيد قيم محددة، والسباحة في عالم من الخيال والفضيلة بعيدا عن الواقع، وعن القراءة الواقعية والليبرالية للتاريخ والحاضر. ومن المهم القول بأن انكلترا " كانت أول مكان اصبح فيه المصطلح مألوفاً وواسع الانتشار، فقد ارتبط المصطلح - أول الأمر - بقصص الخيال القديمة، وحكايات الفروسية، والمغامرات والحب، مما يميز بالعواطف الجارحة، وعدم الاحتمال والمبالغة واللاواقعية. وباختصار نقف على النقيض من نظرة رزينة معقولة إلى الحياة.

⁴⁴ - جان توشار: تاريخ الأفكار السياسية: الاشتراكية، الليبرالية، القومية، السلفية. ترجمة: د. ناجي الدراوشة. دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر. دمشق. سوريا. الطبعة الأولى 2010 م. ص 9.

وهكذا استعملت كلمة (رومانسي) في عبارات مثل: (حكايات رومانسية وحشية) لتفيد معنى متخيل ووهمي " ⁴⁵.

وكذلك ظهرت الليبرالية وانتشرت في العديد من الدول الأوروبية، لتصبح مذهباً في الحكم والإدارة بعد ان تعرضت للكثير من الشرح والتحليل من قبل فلاسفة ومفكرين كبار، استطاعوا أن يجعلوا منها نظام حكم قادر على احتواء الاقتصاد والسياسة والاجتماع. وطبعاً فإن " كل فكر بحاجة إلى أسس ومرتكزات ينطلق منها للتنظير من جهة، ولخلق القاعدة الجماهيرية من جهة أخرى، وكذا هو الحال مع الفكر الليبرالي الذي اتخذ من الحرية والفردية والعقلانية والمساواة أسس فكرية، وقد وضع لهذه الأسس عناصر الالتزام التي تتفق مع المنطلقات الفكرية له (...). ان الليبرالية تدفع بالفرد إلى المقدمة وتمجده إلى أن يصبح هو الحقيقة، وتقدم الحجة بان الأفراد هم الذين يصنعون المجتمع، وان سعادة الفرد هي رفاهية المجتمع، وهو مركز الحياة الاجتماعية، لذا ينبغي على الدولة ان تترك الفرد حراً لأن يعمل في تنمية مصالحه وشخصيته، وعلى الدولة أن تقف بعيداً ويكون واجبها الأوحيد هو أن يتحمي الفرد ومصالحه " ⁴⁶.

وكان للمفكرين الأميركيين والفرنسيين نصيب كبير في تطور الفكر الليبرالي والترويج له بين النخب السياسية، من اجل جعله مناهج سياسية واقتصادية واجتماعيا للحياة، ونذكر هنا توكفيل ومونتسكيو، " فموضوع الحرية هو الذي يسيطر على كل مؤلفات توكفيل، وهو الذي يعطيه الوحدة، وحدة معتدلة، منتظمة، تحتويها المعتقدات والآداب والقوانين. وبعكس مونتسكيو، لا يؤمن توكفيل بالهيئات الوسيطة، بشكلها التقليدي. اما تنظيم السلطات، فهو يتكلم عنه قليلاً نسبياً، فهو من انصار النظام ذي المجلسين، ويعادي النظام الرئاسي، ولكنه ليس له الا ثقة محدودة في

⁴⁵- نغم عاصم عثمان: الرومانسية: بحث في المصطلح وتاريخه ومذاهبه الفكرية. المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية. النجف. العراق. الطبعة الأولى 2017 م. ص 17.

⁴⁶- د. طلال حامد خليل: المرتكزات الفكرية لليبرالية: دراسة نقدية. مجلة (دقائق السياسة والقانون) الصادرة عن كلية الحقوق والعلوم السياسية جامعة قاصدي برباح. الجزائر. العدد 15، يوليو 2016 م. ص 159.

المؤسسات السياسية لضمان الحرية. وينصح توكفيل لتلافي الفردانية (صداً للمجتمعات) بثلاثة علاجات: أولاً: اللامركزية الادارية والحريات المحلية والاقليمية، ان تنامي الشعور بالاقليمية هو عنصر عظيم للنظام وللطمأنينة العامة. ثانياً: اقامة الجمعيات من كل نوع سياسية، صناعية، تجارية، عملية أو أدبية من التي تساعد على تكوين بديل للارستقراطية، فلا يمكن من جديد اقامة ارستقراطية واحدة في العالم، ولكن لا شيء يمنع من اقامة ارستقراطيات عن طريق جمعيات المواطنين البسطاء، وعن طريق الاثرياء الكبار، والنافذين والاقوياء جدا، وبكلمة عن طريق الأشخاص الارستقراطيين. ثالثاً وأخيراً وخصوصاً المزايا الاخلاقية كالحس بالمسؤولية ومحبة الخير العام وتوكفيل مثل مونتسكيو يؤمن بأولوية الاخلاق على السياسة " ⁴⁷ .

كما واستطاع جون ستيوارت ميل (1806-1873) أن يطبع الليبرالية بمسحة انسانية رومانسية، وان يخرجها من طابعها المترمت المبني على المصلحة والاتجاه الصارم في حساب المصالح وتقديس النزعة الفردية والحريات الشخصية. ويقول ميل في كتابه (أسس الليبرالية السياسية) خلاصة أفكاره في مزج الجانب الانساني المتمثل بالعدالة والرحمة ضمن الاطار الليبرالي الصارم، " إن القواعد الأخلاقية التي تمنع البشر من أن يلحقوا الأذى بعضهم ببعض (ولا ينبغي أن ننسى أبداً أنها تشمل التدخل الخاطيء في حرية بعضهم البعض) هي أكثر حيوية للسعادة البشرية من أية قواعد أخرى، بغض النظر عن أهميتها. ولا يشير ذلك إلا إلى أفضل نمط لإدارة قسم معين من الشؤون البشرية. وهي تتصف كذلك بتلك الخاصية العجيبة وهي أنها العنصر الرئيسي في تحديد مشاعر الانسان الاجتماعية. ومراعاتها هي وحدها تحفظ السلام بين الموجودات البشرية: وان لم يكن طاعتها هي القاعدة، وعصيانها هو الاستثناء، فإن كل فرد سيجد في كل فرد آخر عدواً له، وسيضطر إلى أن يكون باستمرار على حذر منه، ولا يقل عن ذلك أهمية ان نقول ان البشرية تميل على نحو مباشر، وبأشد اندفاع، الى تعزيز هذه القواعد في نفوس أبنائها. فاذا اقتصر أمر الافراد أن يعطوا بعضهم

⁴⁷ - جان توشار: الأسس النظرية والفلسفية للأنظمة السياسية والقانونية منذ زمن الأغريق وحتى القرن العشرين. مصدر سبق الإشارة إليه. ص 414.

لبعض تعليمات أو نصائح متبصرة، فإنهم قد لا يربحون شيئاً، أو يظنون انهم لم يربحوا شيئاً. أما عندما يغرسون في بعضهم البعض واجب الاحسان وعمل الخير، فإنهم يجنون مصلحة واضحة وأن تكن بدرجة أقل: فقد لا يكون المرء بحاجة إلى إحسان الآخرين، ولكنه بحاجة دائماً إلى أن يتجنب ضررهم. وهكذا فإن النظم الاخلاقية التي تحمي كل فرد من ضرر الآخرين أما بطريقة مباشرة، أو باعاقبة سعيه لتحقيق خيره الخاص، هي تلك النظم التي يرغبها من كل قلبه، والتي من مصلحته الكبرى أن ينشرها ويطبّقها قولاً وعملاً في آن معاً. ومراعاة الشخص لهذه النظم هي التي تحدد امكاناته وصلاحيته لأن يوجد كفرد في جماعة البشر، لأن هذه العلاقة هي التي تحدد ما اذا كان شخصاً كريهاً يبغضه زملاؤه أو لا " ⁴⁸.

أما القومية فقد توطدت كفكر وممارسة قبل عصر التنوير بوقت طويل، حيث ظهرت الثقافات المحلية الأوروبية بعد أن استقلت اللهجات المحلية عن اللغة اللاتينية، وتحولت إلى لغات كتبت بها الاشعار والملاحم الغنائية والقطع الادبية والفلسفية. وكان لحضور النزعة القومية أثر كبير على التشكيل السياسي والجغرافي الاوروبي، حيث ان القومية برزت بعد اضعاف سلطة الكنيسة الروحية وخروج اللاتينية من المشهد بوصفها لغة العلم والدين. ومن هنا " لا يسجل القرن التاسع عشر، بالمعنى الصحيح ومن غير شك، يقظة القوميات، بل توسع التحركات القومية الفكرية وأغلب الحركات الثورية التي ظهرت بين (1848.1815) في ايطاليا وفي المانيا وفي بولونيا، وفي الامبراطورية النمساوية المجرية، فقد كانت ذات الهام مزدوج ليبرالي وقومي " ⁴⁹.

كذلك ظهرت الاشتراكية كردة فعل على استغلال التمدد والتطور الصناعي للطبقة العاملة، فمع الثورة الصناعية والحاجة الكبرى للايدي العاملة لزيادة الانتاج، ظهرت مشاكل العاملين الذين تم استغلالهم من قبل الرأسماليين وأعاونهم في السلطة. وقد اسهمت الرأسمالية في تركيز الأموال

⁴⁸- جون ستوارت ميل: أسس الليبرالية السياسية. ترجمة: د. إمام عبد الفتاح إمام ود. ميشيل متياس. مكتبة مدبولي . القاهرة. مصر. الطبعة الأولى 1996 م. ص 106 و 107.

⁴⁹- جان توشار: الأسس النظرية والفلسفية للأنظمة السياسية والقانونية منذ زمن الأغريق وحتى القرن العشرين. مصدر سبق الإشارة إليه ص 417.

والثروات بيد فئة محددة، وكان ذلك السبب وراء الازمات التي ظهرت، كذلك لم تساهم الصناعة الكبيرة في تحسين أوضاع الطبقة العاملة، بل ازدادت أوضاعها سوءاً. وعند الحديث عن الاشتراكية لا يمكن للمرء أن يقفز فوق دور كارل ماركس، واضع الفكر الشيوعي ومبتكر النظرية العلمية لترجمة الاشتراكية إلى برنامج عمل وحياة، ومن هنا فقد " عنت الرسالة الماركسية الواعدة بفردوس الاشتراكية الأرضي، لقلوب ملايين البشر شعاعاً من الضوء جديداً ومعنى جديداً للحياة. لنسم الديانة الماركسية عقيدة مزيفة، أو صورة كاريكاتورية عن الايمان، وهناك الكثير مما يقال لدعم هذه النظرة لكن لا نغض النظر عن عظمة انجازها أو يفوتنا الاعجاب بذلك. ولننتبه إلى أن كل تلك الملايين - تقريباً، لم تكن قادرة على فهم الرسالة وتقدير أهميتها الحقيقية. وذلك كان مصير جميع الرسائل. الشيء المهم هو أن الرسالة وضعت في إطار معين ونقلت بطريقة يقبلها العقل الوضعي في زمانها، والذي كان، ولا شك، بورجوازيًا، بصورة جوهرية، غير أنها لا توجد مفارقة في القول، إن الماركسية هي جوهرية، نتاج العقل البورجوازي. وهذا حصل، من جهة عن طريق صياغة قوية جداً، لذلك الشعور بالاحباط والمعاملة السيئة، كانت الموقف الشفائي الذاتي لفشل الكثيرين، ومن جهة أخرى، عن طريق الاعلان عن أن التحرير الاشتراكي من هذه الأمراض يقيني بالبرهان العقلي"

50

خلفاء هيغل ونشوء الماركسية:

كانت لأفكار هيغل الأثر الكبير على الفلسفة وعلى مجمل الفكر السياسي، حيث تطور ذلك الأثر فيما بعد ليتحول إلى بدايات حقيقية للفكر الماركسي وصدور البيان الشيوعي المعروف. وفي البحث عن تأثير الماركسية بالجدل الهيغلي يمكننا القول باستفاضة: "ان الماركسية لم تتأثر بمنطق هيغل، وإنما نقلت عنه نصاً وروحاً، دون أن تضيف إلى الجدل الهيغلي إضافة واحدة، حتى إنه لا يجوز أن يقال

⁵⁰ جوزيف. أ. شومبيتر: الرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية. ترجمة: حيدر حاج اسماعيل. المنظمة العربية للترجمة. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى 2011 م. ص 81.

ان هناك ما يمكن تسميته بالجدل الماركسي، وإن أدق تعبير لاستخدام الماركسية للجدل الهيجلي هو ذلك الذي جاء على لسان لينين في دعوته للرفاق للانتظام في جماعة تحمل اسم (الاصدقاء الماديين للجدل الهيجلي). وثانيا: لأن الأثر الهيجلي على الماركسية بصفة عامة لا يمكن أن يوضع في صف واحد مع أي أثر آخر، وعلى ذلك فمن الضلال أن نقرن أثر هيجل بأثر فويرباخ. إذ فضلا عن ان مادية فويرباخ قد خرجت من أحشاء المذهب الهيجلي نفسه - فإنها وبغير الجدل الهيجلي لا وزن لها، ولا هي مما تميز الماركسية عن غيرها من الفلسفات المادية، لكن العكس غير صحيح. ذلك لن المذهب المادي قديم قدم الفلسفة ذاتها، وصوره كثيرة ومتعددة، والتفسير المادي للعالم كان شائعا، قبل فويرباخ نفسه، في القرنين السابع عشر والثامن عشر، غير ان الماركسية رفضته لأنه كان تفسيراً مادياً ميكانيكياً بحتاً " 51.

ومن المهم الإشارة إلى ان ماركس نفسه كفيلسوف ومشروع وعالم في الاقتصاد قد تغير فكرا، ومر بالكثير من التحولات الفكرية وتطورت افكاره ورؤاه نتيجة التجارب العملية التي مرّ بها أو اشرف عليها وقادها بنفسه في العديد من البلدان الأوروبية، وليس فقط في ألمانيا بلده، حيث كان الحماس للفكر الاشتراكي وحقوق العمال متواضعا في البداية. لذلك فان دراسة ماركس والفكر الماركسي وتأثرهما بالجدل الهيجلي، يحتاج أيضا الى تصنيف مرحلي، بمعنى التعرض لكل مرحلة على حدة وفهم التطورات والتأثيرات الزمانية والمكانية على ماركس ورفاقه. ويمكننا هنا القول بأنه " فيما بين سنة 1841 - 1844 عندما شرع ماركس في قلب عالم المفاهيم في الفلسفة الهيجلية، تلقى بكثير من الأمل التركيبة التي جرب فويرباخ ان يجربها بين الفكرة والواقع المحسوس للإنسان. لقد عاود فويرباخ دمج العقل في الطبيعة البشرية المحسوسة، وقد انتقد بشكل جذري الفلسفة النظرية، التي انكر منها موقفها التيبولوجي، ودلل على ان التقدم محدود، لا بتفاعل الفكرة الموضوعية أو بفعل الوعي، بل بتفاعل الظروف العامة لكل الجنس البشري في حياته الطبيعية. وعلى كل، ان ماركس قد لاحظ ان

51- د. إمام عبد الفتاح إمام: المنهج الجديد عند هيجل. دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. لبنان. الطبعة الثالثة 2007 م. ص 299.

فويرباخ وقف في الامر عند حد رفض الاستلاب الديني، وانه احل محله نوعا من التعبد للانسانية (..) لنلخص المراحل التالية: في سنة 1844 تخلى ماركس عن كل وهم حول امكانية اصلاح الدولة، وشرع في انتقاد حازم لفلسفة الحق عند هيغل. سنة 1845 وضع في اطروحات حول فويرباخ مبادئ المادية التاريخية، وفي الاطروحة الحادية عشر اعطى كهمة للفلسفة ان تصير روح الممارسة الثورية. وفي ذات السنة أكد كتاب العائلة المقدسة، وهو مؤلف ساهم فيه انجلز ببعض الفصول، انفصاله الكامل عن الفلسفة الانتقادية لبورنو بورو ورفاقه. وفي سنة 1846 أظهر ماركس وانجلز في (الايديولوجية الالمانية) بصورة نهائية مواقفها ليس فقط بالنسبة الى حركة الهيجليين الجدد، ولكن ايضا بالنسبة إلى فويرباخ. في سنة 1847 اصدر (بؤس الفلسفة)، وهذا الكتاب لا يشكل فقط دحضا لبرودون بل رفضا لكل اشتراكية غير علمية. اما القسم الثالث من (البيان) فمخصص بكامله لانتقاد العقائد الاشتراكية والشيعوية. وبعد عام 1850 اصبح تأليف وحياء كارل ماركس، وحياء انجلز ايضا، مستغرقين بالمقتضيات النظرية والتطبيقية للحركة الثورية البروليتارية. فعدا عن وضع المؤلف الأم (رأس المال) الذي ظهر منه الكتاب الاول فقط في حياة ماركس سنة 1867، اصبحت المراحل الرئيسية هي التالية: 1- انطلاقا من حل (عصبة الشيوعيين) عام 1852 ظل ماركس خارج كل تنظيم سري ثوري. 2- وبعد 1862 سنة الانفصال عن لاسال، بدأ النضال المستمر المتعادي ضد الاشتراكية القومية والدولية التي نادى بها (اللاساليون)، وضد تأثير هؤلاء في قلب الحزب الاجتماعي الديمقراطي الالمانى. 3- وبعد 1864 السنة التي ساهم فيها ماركس في تأسيس العالمية الأولى، بدأ الصراع داخل هذا التنظيم ضد التأثيرات البرودونية. 4- وبعد عام 1874 تقريبا توجب على ماركس وأكثر منه على انجلز، ان يردا على المحاولات الاولى للماركسين التصحيحيين، والذين تذرعو بالاكشافات الجديدة في علوم الطبيعة، وباسم (وضعية راديكالية)، فارادوا تجاوز الماركسية، وأكثر من ذلك ايضا، ان يبعثوا منها حتمية الممارسة الثورية، بانكار الحركة الديالكتية. ولايقاف الاغراء الذي مارسته هذه (الماركسية الجديدة) في بعض اوساط الاجتماعية - الديمقراطية

الالمانية، كتب انجلز سنة 1877 كتابه (*Anti-Duhring*)، وساهم فيه ماركس بفصل واحد "

52

الماركسية:

استطاع كارل ماركس تطوير عدة نظريات أساسية في الفكر والاجتماع والفلسفة والسياسة. وكان ماركس ابن بيئته وزمانه حقا، فهو عاش في أوج الثورة الصناعية وتوسع التجارة والتغير الكبير في بنية المجتمعات الأوروبية بعد ظهور الآلة وتوسع العمران وظهور علاقات اجتماعية جديدة تماما اثر التحول الاقتصادي والسياسي الكبير. ويمكن القول عن ماركس ونظريته، بان " النظرية الماركسية تمثل تصورا للعالم بجميع مكوناته (الانسان والمجتمع والتاريخ والمادة)، تتأسس هذه الرؤية للعالم على النتائج العلمية لعصره سواء في الفيزياء أو الاقتصاد أو البيولوجيا...، وكذا على الأفكار الفلسفية السابقة على عهد كارل ماركس أو المتزامنة معه. يعرض ماركس هذا التصور الجديد في مؤلفاته: المخطوطات الاقتصادية والفلسفية (1844)، العائلة المقدسة (1845)، الايديولوجيا الألمانية (1845-1846)، وبالاشتراك مع فريدريك أنجلز: أطروحات حول فويرباخ (1845). غير ان كتاب بؤس الفلسفة يعتبر أول كتاب لفكر ماركس الراشد. سيليه كتاب أكثر شمولا للتصور الماركسي هو بيان الحزب الشيوعي (1848) الذي كتبه بمعونة انجلز استجابة للمؤتمر الشيوعي " ⁵³.

والمتنبع لافكار ماركس وانجلز سوف يرى عدم لجوء المفكرين الى الخوض بشكل مباشر في الأمور السياسية، أو تحليل مآلات السياسة المعاصرة في مجتمعات كل من أنكلترا، فرنسا وألمانيا. فالتفكير كان منصبا على استنباط النظرية الأمثل لحكم الدولة وصنع السياسة وفق مناهج الشيوعية وحكم الطبقة العاملة. ومن هنا فإن " التفكير حول السياسة، في تأليف ماركس وانجلز، يبدو دائما متأرجحا

⁵² - جان توشار: الأسس النظرية والفلسفية للأنظمة السياسية والقانونية منذ زمن الأغريق وحتى القرن العشرين. مصدر سبق الإشارة إليه ص 472 و 473.

⁵³ - مجموعة مؤلفين: الماركسية الغربية وما بعدها: التأسيس والانعطاف والاستعادة. إشراف: د. علي عبود المحمداوي. دار ومكتبة عدنان. بغداد. العراق. الطبعة الأولى 2014 م. ص 30.

بين حدين: من جهة وعلى سبيل المقدمة، بين انتقاد مسبق للزائف (وهذا يعني وجود صحيح ممكن)، ومن جهة أخرى، وبعد دورة طويلة، يتوقف فيها ظاهريا كل تفكير سياسي، بين ما وراء الكون السياسي (بعد ظهور مفاجئ ومحير لآلة الدولة للانتقال من النصر الثوري للبروليتاريا إلى المجتمع الشيوعي الذي نعرف فقط انه لن يكون بعد بحاجة لدولة المجتمع القديم). وبدا، بين الحدين شيء ما ناقصا: تحليل منهجي للوظائف المحددة للدولة، ولتفاعلها التاريخي، وللفروقات التي تفصل بين هذه وتلك من النظم السياسية " 54.

كما انتقد ماركس ارتباط الدولة بالدين، ودعى إلى ضرورة تحرر الدولة من الدين، والتمسك بالعلمانية، والتي قال بانها لا تعني الغاء الدين، ولكنها تمنح المواطنين الحق في التفكير واعادة النظر في علاقتهم مع الدين وما يترتب عليه من مظاهر والتزامات. كذلك انتقد ماركس القومية، وعرض بدلا عنها الأممية، رافعا شعار (يا بروليتاري العالم اتحدوا) في إبراز الشعار الاعم والاشمل، وهو كوني في جوهره، بدل شعارات الدولة القومية التي تقتصر على اطر جغرافية واثنية ولغوية مغلوقة بنوع من السيادة التي تُسمى هنا الدولة/ الأمة، في مفهوم ضيق اذا ما تم مقارنته بالأممية في المفهوم والرؤية الماركسية.

لقد تعرض ماركس للكثير من المواضيع في مؤلفاته منها البرجوازية والاقطاع ووسائل الانتاج وطبيعة الانسان وصراع الطبقات ومفاهيم الانسان والدولة والحكم والسيطرة، اضافة الى مواضيع فلسفية منها وجدان الانسان وحرية وقراره وتفاعله مع الاخر، وكيفية نظره الى الملكية والحرية والاجتماع البشري. وجاءت انظمة حكم فيما بعد لكي تطبق الافكار الماركسية ولكن التطبيق يختلف عادة عن الجوانب النظرية والمبادئ الموضوعية في بطون الكتب، وعليه فإن " الهم الأول للقادة في بلد بلا أدوات وبلاد إطارات سيكون تحقيق الشروط المادية لحل المشكلات التي خلقتها الثورة. وانك لعلی

54- نفس المصدر. ص 476.

صواب كبير حين تلاحظ ان ماركس كان يتوقع التحول الثوري في البلدان الرأسمالية المتقدمة، وان الثورات حدثت جميعها حتى الآن في بلدان متخلفة بل مستعمرة. وينجم عن هذا ان وعي الحركة الثورية متقدم على اقتصاد البلاد. وعلى البروليتاريا ان تعطي عقيدتها اقتصادها. بيد ان قلب المشكلة يؤدي إلى انفصال حاجات الطبقة البروليتارية ومصالحها المباشرة من جهة، والتركيز على الانتاج من الجهة الثانية. وفي مثل هذه الحال لا يعود بوسع سياسة البناء ان تستلهم ردود أفعال الجماهير العفوية، وبالمقابل تهدد ردود الأفعال العفوية بأن تسير في عكس اتجاه المصالح العامة للاقتصاد. فقبل الثورة كانت كل حركة غاضبة أو يائسة مستندة إلى ألم أو حاجة خاصة شمولية وذلك بقدر ما تكون فردية. وبعد الثورة تظل هذه الحركة عينها فردية ومناهضة لما هو شمولي عام. وماركس يشرح ان الشكل الثوري للعامل في المرحلة ما قبل الثورية ينجم عن التناقض بين طبيعته الانسانية وبين وجوده الحيوي الذي هو النفي العلني والنهائي والشامل لهذه الطبيعة " ⁵⁵.

الليبرالية التقليدية/ التراثية والامبريالية:

تميزت الفترة ما بين (1848 - 1914) ب بروز العديد من النظريات السياسية والفكرية، والمفاهيم التي طورها الفلاسفة والمفكرين لكي تكون أطر وأنظمة الحكم. والملفت في الأمر بان الليبرالية لم تحقق أي نجاح في هذه الفترة، فالدول والكيانات توحدت من خلال الحروب والصراعات وليس من خلال الحلول السلمية والتوافقية التي حاولت الليبرالية أن تقدمها. فايطاليا وألمانيا والمكسيك والولايات المتحدة الأميركية توحدت عبر الحروب الداخلية والصراعات وليس عبر الأفكار الليبرالية. وفي هذه الفترة ظهرت أفكار داروين وهيربرت سبنسر وأوجست كونت وماركس، وهي كلها أفكار بحث في الليبرالية والاشتراكية كأطر للحكم والإدارة.

⁵⁵ - جان بول سارتر: قضايا الماركسية. ترجمة: جورج طرابيشي. بدون تاريخ ومكان النشر. ص 25 و26.

ونفى الاتجاه الليبرالي في فرنسا بشكل واضح عقب الاضطرابات التي حصلت عام 1848م، حيث تم فصل 120 ألف عامل من عملهم في المعامل العامة. وفي هذه الفترة ظهرت أفكار مثل الراديكالية والجمهورية الجديدة والعقلانية، وبرزت أسماء مثل بارادول و ليون بورجوا وكومب وآلان. وظهر بعض التناقض والالتباس بين فكري الراديكالية والليبرالية، حيث ان " الراديكالية غرضها تنظيم - وخصوصها يقولون: احتكار الليبرالية، ولكن في بعض الظروف، ظهرت المشاعر الليبرالية أضخم وأعظم خارج أطر الليبرالية المنتظمة. وعلى هذا قسمت قضية دريفوس فجأة فرنسا إلى معسكرين، وبعود حلف حقوق الانسان إلى هذه الحقبة، وكذلك تجدد الكرامة التي تمتع بها الكتاب الذين خاضوا العراك السياسي من أجل الدفاع عن الحريات (اناطول فرانس، أميل زولا). وظلت الأفكار السياسية في فرنسا المعاصرة من زوايا كثيرة، مطبوعة بقضية دريفوس " ⁵⁶.

وبرزت الليبرالية الانكليزية بشكل واضح وأثر فيها كثيرا الفيلسوف هربرت سبنسر. وقد تعرض سبنسر في مؤلفاته (التوازن أو السكون الاجتماعي) و (المبادئ الأولى) و (مبادئ السوسولوجيا والاخلاق) إلى العديد من مشاكل المجتمع وكيفية صياغة النظام والسياسة. وقد شبه سبنسر الحياة الاجتماعية بالحياة الجسدية: وقال بان المجتمع يخضع لقوانين مشابهة للقوانين التي تخضع لها اجهزة الجسم، وان الاجهزة الحية تتكيف من خلال مبدأ التطور مع المحيط، وبذلك فالاجهزة المفيدة تنمو بينما غير المفيدة تذوي وتضمحل. والفرنسي رينان قال بان العلم هو المخلص الوحيد للبشرية على الارض، لكنه ركز على ضرورة وجود اخلاق وقيم سامية تتحكم بالعالم وتؤطره. وكذلك ظهر كل من بيغي وباريس وموراس الذين ألفوا في الشعور القومي، وضرورة الاحتكام إلى روح الأمة الفرنسية واستنباط التقدم والتطور منها للصعود والتقدم نحو المستقبل.

⁵⁶ - جان توشار: الأسس النظرية والفلسفية للأنظمة السياسية والقانونية منذ زمن الأغريق وحتى القرن العشرين. مصدر سبق الإشارة إليه . ص 525.

وفي ألمانيا ظهر فلاسفة ركزوا على الروح الألمانية وعلى الواقع الجيوسياسي لهذه البلاد، بهدف بناء نظام قوي فيها يؤهل البلاد للقيام بدور كبير على الصعيدين الاقليمي والدولي. وطبعا لم تنجو هذه النظرة من دعوات وأفكار عنصرية تزعم تفوق العنصر الألماني. ومن بين هؤلاء الفلاسفة تريتشكي وفاغنر وذرثليي نهاية القرن الثامن عشر.

أما النزعة الامبريالية فقد ظهرت بداية في انكلترا، ومن هنا يمكننا القول بأن " التراث المحافظ مزيج من المثالية والبطولية، ومن الشعور بالسلطة. ولكن اتجه انكلترا نحو الامبريالية هو قبل كل شيء ارتكاس أمة خائفة. الامبريالية الاقتصادية: سنة 1891 كانت انكلترا كفرنسا، تعد 38 مليون انسان، في حين كانت ألمانيا تعد 50 مليوناً، والولايات المتحدة الاميركية 63 مليوناً، وروسيا حوالي مائة مليون. وشعرت الأمة الانكليزية انها مهددة من قبل الامبراطوريات. وكانت انكلترا تمتلك اسطولا تجاريا حمولته تعادل حمولة كل الاساطيل الاخرى، ولكن بعد 1872 التي كانت سنة ذروة، اخذت الصادرات الانكليزية تتدنّى، فقد اعتمدت المانيا والولايات المتحدة تعرفات جمركية حامية. وشعر الرأي العام الانكليزي ان الضرورة تقضي بان يستولي على اسواق خارجية. ولكن الامبريالية الانكليزية تقرر دائما بالمثل الانساني السامي والشعور بالمصالح البريطانية ان لانكلترا مهمة، وان مصالح الامة البريطانية تتوافق مع مصالح البشرية. ويتكلم فقهاء الامبريالية عن البضائع اقل مما يتكلمون عن الاخلاقيات وعن الدين. ان العلم الانكليزي هو علم الحضارة. وفي كتاب طبع تسع عشرة طبعة خلال اربع سنوات، أكد بنجامن كيد بان تفوق عرق معين على آخر لا يعزي إلى العقل، وهو قدرة جافة، بل إلى إرادة تتبع المصلحة الآنية بمصلحة بعيدة، مصلحة الفرد لمصلحة المجموعة. واستخلص كيد، وهو يمثل العرقية، بان تفوق العرق الانكليزي والعرق الألماني على الاعراق اللاتينية هو بصورة اسيسية اخلاقي وديني " ⁵⁷.

⁵⁷- المصدر السابق. ص 545 و546.

أما الامبريالية الاميركية فقد ظهرت بعيد انتصار الشمال على الجنوب، ومن هنا " فان للتوسعية الاميركية جذور بعيدة (استلحاق فلوريدا سنة 1819، وتكساس سنة 1845، الحرب مع المكسيك 1846 - 1848 والتي انتهت باستلحاق كاليفورنيا، فكرة المصير البارز، يعود للولايات المتحدة أن تحتل كل القارة الأميركية)، ولكن التوسعية الاميركية ارتدت انطلاقا من سنة 1885 - 1890، وبأن واحد الصفة المنهجية والشعبية ذات السمات الاميركية الخاصة والسمات المشتركة بين كل اشكال الامبريالية:

- الامبريالية السكانية/ الديمغرافية: تستطيع الولايات المتحدة حاليا ان تغذي عدد سكان ضخم. في سنة 1980 سوف يغطي 700 مليون انكلوسكسوني أوروبا، افريقيا والعالم. وهذا توسع جديد لنظرية المصير البارز.

- الامبريالية البيولوجية: القائمة على تفوق الانكلوسكسونية. سنة 1899 أكد تيودور روزفلت في مجلة (الحياة الصعبة) انه يوجد قومية عرقية كما توجد قومية بلدانية. في سنة 1900 أدلى السناتور بفريدج بهذه الكلمات: (نحن لا نتخلى عن مهمة عرقنا الذي اوكلت إليه حضارة العالم باسم العالم. نحن نتقدم في عملنا. وكلنا شعور بالجميل تجاه مهمة تليق بقوانا، وكلنا شكر لله القادر الذي جعلنا شعبه المختار لقيادة العالم نحو بعته " ⁵⁸.

الاشتراكيات والحركات الثورية:

لم تنهار وتختفي الرأسمالية مثلما تنبأت الاشتراكية، بل توطد النظام الرأسمالي وانتشر نظام السوق الحرة، والليبرالية الاقتصادية في العديد من الدول والمناطق في العالم. ولم تحدث ثورات شعبية كبيرة في الدول ذات النظام الرأسمالي بالزخم الذي توقعه الاشتراكيون وانتظروا. وللحديث حول ذهنية وطريقة الاميركان في ادارة بلادهم الجديدة، او العالم الجديد، تكتب الفيلسوفة الالمانية حنة أرندت

⁵⁸- نفس المصدر ص 548 و 549.

ما يلي: " ان المستوطنين للعالم الجديد لم يفروا من وقر هذا العرف حين عبروا الاطلسي، بل فروا حين كونوا لانفسهم كيانا سياسيا مدنيا، وارتبطوا بشكل متبادل بمشروع معين بروابط لم تكن موجودة سابقا، وبذلك بدأوا بداية جديدة في خضم التاريخ الخاص بالجنس البشري الغربي، وقد تم ذلك تحت ضغط الظروف خوفا من البرية القفراء المجهولة في القارة الجديدة وفزعا من الظلام البهيم في القلب الانساني. ونحن نعرف اليوم، في منظور تاريخي، ما كان يعنيه ذلك الفرار، وما يشير إليه في كل الظروف والأحوال، ونعرف كيف أنه أبعد أميركا عن تطور المدينة - الدولة الأوروبية، وأعاق الوحدة الأصلية لحضارة أطلسية مدة تزيد على مائة سنة، والقي بأميركا في البرية القفراء للقارة الجديدة وجردها من العظمة الثقافية لأوروبا. وعلى الشاكلة ذاتها فقد وفرّ على أميركا القناع الأردأ والأخطر الذي اتخذته المطلق في الميدان السياسي، وهو قناع الأمة. ولعل ثمن هذا الفكك، ثمن العزلة، ثمن القطع عن جذور الشعب وأصوله في العالم القديم ما كان ليصبح باهظا جدا لو ان الفكك السياسي كان قد حقق كذلك تحررا من الاطار المفاهيمي والثقافي للعرف الغربي، تحررا ينبغي ألا يعتبر خطأ بمثابة نسيان للماضي " ⁵⁹.

ومن المهم الحديث بشكل مستفيض عن أهمية الكومونة في النظام الاشتراكي وتدعيم أسس الشيوعية، بوصفها النواة الأولى لنظام حكم وإدارة البروليتارية نفسها بنفسها. ومن هنا فقد " مارست الكومونة تأثيرا حقيقيا على نمو الايديولوجيا الماركسية، وعلى الفوضوية وعلى النقابية الفرنسية والايطالية والاسبانية، وبشكل أكثر عمومية على بعض قطاعات الحركات الثورية الاوروبية. على الماركسية بالدرجة الأولى، بعد الكومونة، وجزئيا بعد التفكير فيها، عاجل مؤلفان لكارل ماركس، من جهة دراسة وسائل النضال من أجل القضاء على المجتمع السياسي القائم، وبصورة خاصة، من جهة اخرى، شكل التنظيم الاجتماعي الذي من شأنه خلف الدولة عقب الثورة البروليتارية. هذا المؤلفان هما: الحرب الاهلية في فرنسا، وانتقاد برنامج غونا، بالاشترك مع انجلز. وكانت كومونة باريس

⁵⁹ - حنة أرندت: في الثورة. ترجمة: عطا عبد الوهاب. مراجعة: رامز بورسلان. المنظمة العربية للترجمة. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى 2008 م. ص 286.

بتقويتها لكارل ماركس في قناعته بان الحركة البروليتارية الدولية يجب ان تكون ممرزة، بصورة غير مباشرة، في اصل تفجر العالمية الاولى من سنة 1880، كانت الحركة الفوضوية هي التي خلفت الحركة البروليتارية في الواقع، في حين بدأت تنتظم بهدوء، في فرنسا بصورة خاصة، حركة نقابية ثورية، احيانا بمبول فوضوية. وبدت الفوضوية وكأنها استمدت من ذكرى كومونة باريس واسطورتها قسما من التأثير الذي كان لها فيما بين 1872 و 1900 تقريبا. وسمعة الكومونة كانت بالتأكيد أقل بروزا لدى النقابية الثورية في فرنسا واسبانيا وايطاليا ذلك ان هذه النقابية اخذت الارث الايديولوجي للكومونة بعد ان عبر اليها من خلال الفوضوية وبعد ان دمجت فيها اتجاهات تكونت تجريبيا خلال النضال الفعلي لنقابات العمال ولبورصات العمل " ⁶⁰.

وظهر الاتجاه الفوضوي والذي رفض الديمقراطية، نافيا بانها حكم الجماهير نفسها لنفسها، بل هي حكم الطبقات الحاكمة ومثلوا العملية الديمقراطية التي خرجت " الاكثرية " هنا. فالديمقراطية المباشرة تصدر اناسا يجعلون من انفسهم وسيطا بين الجماهير وآلة الحكم وتقرير المصير، وهو الامر المفروض في عرف جماعة الفوضوية. اما الماركسية فقد ظلت عبد عام 1870 التيار الايديولوجي الوحيد المترابط مع الاشتراكية. وحدها الفوضوية نازعتها المكان بنجاح، انما ضمن مناطق محدودة جدا سويسرا، اسبانيا، وبنسبة اقل روسيا. وظلت بريطانيا بمعزل عنها. بل لم تستطع اي ايديولوجية اشتراكية ان تفرق فعلا هذا البلد الذي ظل الارض الخصبة للنقابية الانكلوسكسونية. وظلت الماركسية حتى سنة 1917 الايديولوجية الرسمية لكل الاحزاب الاشتراكية ذات البعد العالمي.

القرن العشرين:

⁶⁰ - جان توشار: الأسس النظرية والفلسفية للأنظمة السياسية والقانونية منذ زمن الأغريق وحتى القرن العشرين. مصدر سبق الإشارة إليه. ص 557 و 558.

من المهم التأكيد هنا عند الحديث عن القرن العشرين، بأنه لم تعرف عقيدة سياسية او دينية في حياتها انتشارا كبيرا وطاغيا مثل الماركسية اللينينة، أو العقيدة الاشتراكية، " ليس فقط لان انظمة شيوعية تغطي اليوم قسما كبيرا من الكرة الارضية. بل ان الفكر الشيوعي حاضر حتى في البلدان الاكثر عداء له. لا شيء مماثل للعزلة الرائعة التي اصابت ليبرالية القرن التاسع عشر، ولجملها بالاشتراكية وبالحقائق الاجتماعية. ان معاداة الشيوعية هي اعتراف وتمجيد لقوة الشيوعية، والاشيوعية التي نادى بها مرلو بوتني في مغامرات الديالكتيك مقضي عليها لن تبقى طويلا حلم فيلسوف. ان انتصار الفاشية والقومية الاشتراكية يدل على أزمة الديمقراطية، ولكن بعد انتصار الديمقراطيات سنة 1945 ظهر جليا ان الفاشية لم تمت، وان روح الديكتاتورية ما تزال تمارس اغراء قويا، وان الليبرالية تجهد في ان تتجدد. ليبرالية جديدة، تقليدية جديدة، قومية جديدة، تجمعية جديدة، اشتراكية جديدة: ماذا يوجد حقا من جديد في كل هذه المحاولات؟. هل يجب الاعتراف بان القرن العشرين لم يعط الحياة الا لايديولوجيتين جديدتين الشيوعية والفاشية؟. لقد اصبح من التافه الكلام اليوم عن تقهقر أوروبا، كما كان من التافه التذكير، قبل سنة 1914، بالتفوق الاوروبي. وليس من الممكن كتابة تاريخ للافكار السياسية في القرن العشرين مقصور على أوروبا وعلى الغرب. الصين، والهند، والاسلام كان لها منذ زمن بعيد تراث سياسي، وهيكلية أفكار وعقائد سياسية مستقلة عن افكار وعقائد الغرب " ⁶¹.

وفي العموم كانت الشيوعية تحمل أفكارا نبيلة تتمحور حول المساواة وايقاف استغلال البشر من قبل فئة محددة، ومنع احتكار العمل والثروات، وحماية الضعفاء من سطوة وقوة الاغنياء، وعليه فان " المذهب الشيوعي هو اعتقاد بظهور عالم أفضل، مؤسس على قوانين الصيرورة التاريخية. اذا كانت هذه النواة، فعلى كل واحد واجب بديهي - وخصوصا الذين هم مثلي يكرهون الحرب والعنف - أن يؤيد الحزب الذي سيحقق هذا الهدف. إن هذا الامر الواقع الذي يجب بكل الطرق ان يحدث،

⁶¹ - المصدر السابق. ص 589 و 590.

وإذا قاومت شخصية ما - علما بان الأمر يتعلق بشكل حتمي - فإن هذا يعد جريمة، لأنها تقاوم شيئا يجب أن يحدث، وتصبح بهذه المقاومة نفسها، مسؤولة أو مشتركة في المسؤولية، عن العنف وعن الموت الذي سيحدث حتى تقام الشيوعية. يجب ان تأتي الشيوعية، يجب ان تقام ويجب اذن أن نأمل ان يكون هناك حد أدنى من المقاومة، وعددا اقل، قدر الامكان، من الذي يضحي بهم. وايضا لقد فهم كل واحد ان التنبؤ يمكن البرهنة عليه علميا وان الاشتراكية يجب بكل الطرق ان تصبح واقعا، ومن واجب كل واحد تسهيل ظهورها. ومن اجل هذا يتصرف الشيوعيون بطريقة غريبة، ويتناقضون من يوم لآخر، كل شيء كان مسوغا، لانهم سيساعدون الشيوعية على الاستيلاء على الحكم. لقد أدركت ان هذه هي النقطة الرئيسية، المسألة الحاسمة في التاريخ، والسبب الرئيسي لكل نشاط، وهذا ما يسوغ كل الاختيارات. في الواقع لم يكن فقط تسويغا، لانه من الواضح انه يمكن ان نخطئ، وحتى القادة الشيوعيون يمكن ان يرتكبوا اخطاء، لكن كل هذا يظهر كأخطاء ثانوية. الشيوعيون يجارون من أجل شيء يتوجب ان يتحقق. وهذا ما سميته الفخ، الذي وقعت فيه لفترة وجيزة " ⁶².

وأحدث لينين الكثير من التغييرات في اطر النظرية الشيوعية، فهو مثلا عمد إلى توجيه الشيوعية وتطويعها وفق الواقع الروسي، فنزع من كلمة الايديولوجية معناها السلبي الذي كان ماركس يصر عليه انطلاقا من نقده للايديولوجية الالمانية، فذهب لينين بان ثورة البروليتارية لن تحقق النصر بدون التركيز على اهمية الايديولوجية وتسخيرها لخدمة المشروع الشيوعي الالامي. وكان لينين يهدف كذلك من خلال حكم البروليتاريا الغاء الدولة البرجوازية بشكل كامل ووضع ديكتاتورية البروليتاريا محلها. ولكن هذا الفهم تغير مع مرور الزمن، فقد تشكلت قناعة لدى رجالات الحكم الشيوعي بان الاشتراكية والشيوعية يمكن لهما ان تتحققان بشكل تدريجي ودون الحاجة الى قلب انظمة الحكم او هدم الانظمة الرأسمالية، بل على العكس من خلال الرهان على رغبة و ارادة الجماهير. كذلك تم

⁶²كارل بوير: درس القرن العشرين. الترجمة: د. الزواوي بغورة ود. لخضر مذبح. الدار العربية للنشر والعلوم. الجزائر. الطبعة الأولى 2008 م. ص 25 و 26.

رفض نزعة عبادة الفرد والتي ترسخت مع وجود ستالين في الحكم في روسيا. كذلك يرفض ماوتسي تونغ اعتبار تحقيق الاشتراكية وبناء المجتمع الشيوعي هو نهاية المطاف وتحقيق الهدف الأكبر الاسمي. وقد اعتمد ماوتسي تونغ على الفلاحين المسلحين في تحقيق النصر على البروجوازية والاستعمار، ومن ثم عمدت السلطة إلى توزيع الاراضي على الفلاحين. كذلك استفاد المفكر الايطالي غرامشي من هذه الفكرة، وقال بضرورة انضمام الفلاحين إلى البروليتاريا الثورية من أجل تحرير الارض من المستغلين واستثمارها بواسطة الشعب صاحب الحق الواضح والوحيد فيها.

كما وشهدت تقريبا كل الدول الأوروبية حركات شيوعية قوية هدفت للتغيير، منها ما استهدفت السلطة مباشرة، مستلهمة الامتداد الروسي، ومنها ما وصل إلى قناعة بان العمل يجب ان يكون بحسب خصوصية المجتمع المراد إحداث التغيير فيه. فالعديد من المفكرين والقادة ذوي النزعة الاشتراكية الراديكالية احدثوا مراجعات فكرية وعملية فيما يخص النضال السياسي في مجتمعاتهم. وطبعا كان هناك الكثير من النقد والمراجعة وايضا الرفض للتجربة السوفياتية بوجهها اللينيني الستاليني. فالاشتراكيون الاوروبيون لم يكونوا على وفاق تماما بالنسبة للاشتراكية في اصلها الماركسي، ولا بالاشتراكية في تطبيقاتها السوفيتية وفق رؤى واجتهادات لينين وستالين. كان الاتجاه ينحو إلى استنباط اشتراكية جديدة خاصة بالمجتمعات الأوروبية حصرا.

كذلك ظهر مصطلح الفاشية، وجاء في الاساس مرادفا لمصطلح (الشمولية)، ومن هنا فانه " في اللغة الدارجة، تدل الفاشية ليس فقط على عقيدة في ايطاليا، ولكن ايضا على عقيدة في ألمانيا الهتلرية، وفي كل الانظمة ذات الاتجاه المشابه نوعا ما (اسبانيا فرانكو، برتغال سالازار، ارجنتين بيرون..الخ). وليس من الوارد اطلاقا التخلي عن مثل هذا العرف العميق المترسخ. انما تجب الاشارة إلى واقعة ان هذا العرف هو من أكثر الاعراف قبولا للمناقشة: فهو يقرب بين مذهبين - القومية الاشتراكية والفاشية - متماثلين من غير شك، من عدة نواحي. الا انها قد ازدهرت في أطر مختلفة، كما ظهرت بضخامة مختلفة. وبكلام محدد، من الافضل اطلاق كلمة فاشية على ايطاليا موسوليني

واستعمال كلمة (القومية الاشتراكية) عندما يتعلق الأمر بالمانيا الهتلرية. وقد شاعت كلمة كليانية /شمولية (**Totalitarisme**) منذ عدة سنوات، خصوصا في الولايات المتحدة على قلم كارل ج. فريدريك. والتعبير سهل، الا انه ينطلق هو ايضا من ممثلة قابلة للجدل: بين الديكتاتوريات الفاشية من جهة والنظام السوفيتي من جهة اخرى. ولا ينكر كارل فريدريك الفوارق التي تفصل هذين النمطين من الانظمة، الا انه يرى:

1- انها أكثر قربا فيما بينهما من أي نظام سياسي آخر.
2- ان الأمر هو ظاهرة خاصة بالقرن العشرين، قرن التكنولوجيا الحديثة والديمقراطية الغليظة. ويرى فريدريك ومدرسته، ان الكليانية تختلف بعمق عن الاستبداديات، والديكتاتوريات، والتحكيمات السابقة. في كتابه المعنون (الشمولية والديكتاتورية والفردانية) الذي كتبه بالتعاون مع ز. بريزنسكي، برز فريدريك ستة ضوابط للكليانية:

- 1- ايدولوجية رسمية، اي هيكل رسمي لعقيدة شاملة يغطي كل مظاهر الحياة البشرية.
- 2- جهاز حزب فرد مقاد بيد ديكتاتور.
- 3- جهاز رقابة بوليسي.
- 4- حصر كل وسائل الدعاية.
- 5- حكر أو حصر كل الوسائل العسكرية.
- 6- الرقابة المركزية وتوجيه الاقتصاد بأكمله.

ويلاحظ ان خمسة من هذه الضوابط هي ذات طابع تأسيسي، وواحد فقط - الأول - هو ذو طابع ايدولوجي (...). وليست الفاشية عقيدة، واقل منها القومية الاشتراكية ايضا. صرح موسوليني سنة 1919 بان عقيدتنا هي الفعل. ولم ينفك يردد بان العمل يفضل القول، وان الفاشية ليست بحاجة إلى معتقد بل إلى انضباط. كتب سنة 1824 يقول: نحن الفاشيست عندنا الجرأة على رفض كل النظريات السياسية التقليدية. نحن ارستقراطيون، وديمقراطيون، ثورويون ورجعيون، بروليتاريون ومناهضون للبروليتاريا، سلميون ومعادون للسلميين. يكفي ان تكون لنا نقطة واحدة ثابتة: الأمة.

ولم يشعر موسوليني بالحاجة إلى اعطاء الفاشية عقيدة الا حوالي سنة 1929 - 1930. ومع ذلك كانت هذه العقيدة مهمة وانتهازية نوعا ما. أما هتلر، فقد رفض خلال الحملة الانتخابية سنة 1933 ان يقدم برنامجا، وقال ان كل البرامج عبث، المهم هو الارادة البشرية، وكتاب (كفاحي) هو سيرة ذاتية عاطفية ودعوة إلى العمل أكثر مما هو مؤلف عقيدة. ان احاديث هتلر هي احاديث رجل تملكه بعض الأفكار الثابتة، وليست هي اطلاقا افكار مُنظر " ⁶³.

وكانت الفاشية والنازية وغيرها من الايديولوجيات الشمولية العنصرية تتغذى بالقومية الاشتراكية، وبالديمقراطية والثقة والانتخاب الممنوحين من الشعب غالبا للاستدلال على مشروعيتها وصحتها و احقيتها. وكانت تعتمد على شحن العواطف والعزف على اوتار النزوع القومي، اضافة الى سحر القائد، في تجييش الجماهير وسوقها إلى الخطيرة، بهدف تحقيق الشعار الاكبر في الامة الكبيرة العظيمة القوية!. ومن هنا فيمكننا القول بأن " القضية المميزة للفاشية هي فكرة الجماعة القومية ذات الوحدة العضوية، التي تلخصها عقيدة (القوة بواسطة الوحدة)، أما الفرد فهو لا شيء بالمعنى الحرفي للكلمة، اذ يجب أن تذوب الهوية الفردية تماما في المجتمع أو الجماعة. والمثال الفاشيستي هو الانسان الجديد أو البطل الذي يحفره الواجب والشرف والتضحية بالذات، وهو على استعداد لأن يهب حياته في سبيل مجد أمته أو جماعته العرقية، ولأن يمنح القائد الأعلى طاعة مطلقة. وتشكل الفاشستية من عدة نواح تمردا على الأفكار والقيم التي سادت الفكر السياسي الغربي منذ عصر الثورة الفرنسية فصاعد. ووفق شعار الفاشستيين الايطاليين: (لقد ماتت سنة 1789). وهكذا جرى نسخ قيم العقلانية والتقدم والحرية والمساواة باسم الصراع والقيادة والقوة والبطولة والحرب. ولهذا تتسم الفاشستية بطابع مضاد أو معاد بقوة، فهي معادية للعقلانية ومعادية لليبرالية ومعادية للمحافظة ومعادية للرأسمالية ومعادية للبرجوازية ومعادية للشيوعية وما إلى ذلك. ومع ذلك تعد الفاشستية ظاهرة تاريخية مركبة تضم كما يرى البعض تقليديين ايديولوجيين متمايزين، فالفاشستية الايطالية تمثل

⁶³ - جان توشار: الأسس النظرية والفلسفية للأنظمة السياسية والقانونية منذ زمن الأغريق وحتى القرن العشرين. مصدر سبق الإشارة إليه. ص 618 و 619.

في جوهرها شكلا متطرفا لسلطة الدولة التي تقوم على الولاء المطلق للدولة الشمولية. ومقابل ذلك، تقوم الفاشستية الألمانية أو النازية على النظريات العنصرية التي تصور الشعب الآري على أنه (الجنس السيد) وقدمت شكلا فجا من المعاداة لليهود " 64 .

أما فيما يتعلق بالنخبة فهي تشمل في مضمونها جماعات الضغط. وهذه الجماعات تتنافس للإستحواذ والسيطرة على القوة السياسية، وتعتبر نفسها الطبقة الحاكمة والمشرفة على الحياة السياسية واتجاه الوحدة السياسية، أو معنية بذلك أكثر من أي طبقة أخرى. وترتبط جماعة النخبة بعلاقات ونفوذ قوي مع الطبقة الحاكمة وتؤثر بشكل كبير على مصادر القرار في الإنتاج والصناعة والزراعة. إذن فالنخبة تريد السيطرة والسطوة وتوجيه الدولة بحسب مصالحها، وبحسب خططها وما تراه هي صحيحا. ومن ضمن أدوات السيطرة والسطوة وتوجيه الدولة بحسب مصالحها، وبشكل مباشر، فبشكل غير مباشر عبر الطبقة الحاكمة، والهدف هو الإستحواذ على الشارع والسيطرة عليه وتجييره لمصالح هذه الطبقة. ومن هنا فإن " القدرة غير العادية لجماعة النخبة تقلل من أي احتمال يمكن لعامة الشعب من التوصل إلى صنع القرار أو حتى المشاركة به، أو الحصول على أي دفع قد يساعده من الوصول لذلك. ووفقا لآراء بعض المفكرين السياسيين، فإن النخبة هي مجرد مجموعة قليلة من أفراد الشعب تتمتع بسلطة وقوة خفية تمكنها من صنع القرارات وضبطها في المجتمع وتقوم هذه الجماعة بتحديد القيم الاجتماعية وتوجيهها وضبطها " 65 .

ومن وسائل النخبة في السيطرة على عامة الشعب والحفاظ على ديمومة السيطرة، أي الأمن والإستقرار: " أولا: السيطرة على الموارد الاقتصادية وضبط مصادر الإنتاج لأنها تشكل وسيلة أغراء جيدة وكأداة ضغط على أفراد الشعب. ثانيا: استغلال وسائل التعليم والاعلام الى أقصى حد ممكن لغرض نشر وترويج المبادئ والقيم التي تؤمن بها النخبة ومن أجل اضافة الشرعية عليها

64- أندرو هيود: مدخل إلى الأيديولوجيات السياسية. ترجمة: محمد صفرا. المركز القومي للترجمة. القاهرة. مصر. الطبعة الأولى 2012 م. ص 247

و248.

65- د. عبد المجيد عرسان العزام ود. محمود ساري الزعبي: دراسات في الفكر السياسي، دار الحامد. عمان. الأردن. الطبعة الأولى 1988 م. ص 67.

ولتسخير الرأي العام لخدمة أهدافها. ثالثاً: قابلية النخبة على الاستجابة المؤقتة لمتطلبات المرحلة بسبب بعض الضغوط من قبل الشعب، وقد تتخذ اجراءات مؤقتة لتغير مواقفها وتضع حلول تناسب الأوضاع الراهنة كي لا تفسح المجال لأستمرار النزاعات وتطورها التي تؤدي بالنتيجة الى اضعاف جماعة النخبة " 66 .

والنخب عادة ما ترى في الشعب فئتين:

– مجموعة صغيرة: وهي التي يجب أن تمتلك مصادر القوة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ويصبح بمقدورها استنباط قيم ومبادئ وأولويات للعامة والتركيز عليها، وذلك حسب معاييرها ونظرتها وتفسيرها للدولة والمجتمع. والهدف من هذه الأفكار الموجهة هي التأثير في الشارع وتسييره بحسب نظرة وفكر النخبة.

– مجموعة الشعب: وهي مجموعة العامة المسيّرة من قبل النخبة، والتي تتلقى الأفكار والمبادئ والقيم الموجهة من هذه النخبة، أي من الأعلى. وغالبا ما تختار النخبة بعض الشخصيات من داخل العامة، من أجل التأثير في العامة وتخديرها وتشتيت إنتباهها عن سيطرة وسطوة النخبة. وهذه الشخصيات هذه شخصيات مسيّرة وظيفية ليس لها قرار أو تأثير، لكنها مكلفة بتنفيذ كل ما تطلبه هذه النخبة.

وبالنظر لما ورد، فإن الملاحظ بأن هذه النظرية تمثل تعاليا على الشعب، وتصادر حق الجماهير في الإختيار، وتشكل وصاية واضحة عليه، إذ تعتبره قاصرا، غير قادر على تحديد واقعه وإختيار ممثليه وطريقة الحكم والحياة في الدولة. وهذه النظرة إلى العامة متأثرة بأفكار أرسطو وأفلاطون في الحكم وتقسيم الرعية إلى نخبة من حقها الإدارة والحكم وعامة جاهلة، قاصرة غير قادرة على التواءم مع النظام الديمقراطي، ولا يحق لها سوى العمل وتلقي وقبول الأوامر والمبادئ والقيم وأصوليات الحكم. وتعتبر النخبة نفسها ضمانة للإستقرار ومنع حدوث الإستبداد الذي قد يحصل في حالة تصدر العامة للحكم

66- جواد السعيد: نظرية النخبة في المفهوم السياسي. موقع مركز النور للدراسات. الرابط على شبكة الإنترنت:
<http://www.alnoor.se/article.asp?id=180826>

وتولي المهام والوظائف في الدولة. فالعامة، حسب النخبة، لا تفهم الحكم والسياسة، وتميل بطبيعتها للإستبداد والإستتار والعنف.

المصادر:

- 1- أرنولد توينبي: تاريخ الحضارة الهلينية. ترجمة: رمزي جرجس. مراجعة: د. صقر خفاجة. من إصدارات مكتبة الأسرة. القاهرة. مصر. الطبعة الأولى 2003 م.
- 2- جان توشار: الأسس النظرية والفلسفية للأنظمة السياسية والقانونية منذ زمن الأغرريق وحتى القرن العشرين. ترجمة: د. علي مقلد. منشورات دار الإستقلال للثقافة والعلوم القانونية. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى 2001 م.
- 3- د. حسين مؤنس: الحضارة: دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها. سلسلة عالم المعرفة الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت. الطبعة الثانية 1998 م.
- 4- د. محمد إبراهيم بكر: قراءات في حضارة الأغرريق القديمة. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. مصر. الطبعة الأولى 2002 م.

- 5- د. فضل الله محمد إسماعيل: الأصول اليونانية للفكر السياسي الغربي الحديث. بستان المعرفة لطبع ونشر وتوزيع الكتب. كفر الدوار، مصر. الطبعة الأولى 2001 م.
- 6- مصطفى فاضل كريم الحفاجي: فلسفة القانون عند أرسطو. مجلة (مركز بابل للدراسات الانسانية) الصادرة عن جامعة بابل، العراق. المجلد الرابع. العدد 2.
- 7- ولاء توفيق فرج: الديمقراطية في فكر أرسطو السياسي. مجلة (أوراق كلاسيكية)، الصادرة عن كلية الآداب، جامعة القاهرة، مصر. العدد الحادي عشر، 2012 م.
- 8- د. أحمد غانم حافظ: الامبراطورية الرومانية من النشأة إلى الإنهيار. دار المعرفة الجامعية. الإسكندرية. مصر. الطبعة الأولى 2007 م.
- 9- باتريك لورو: الامبراطورية الرومانية. ترجمة: د. جورج كتورة. دار الكتاب الجديد المتحدة. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى 2008 م.
- 10- د. سيد أحمد علي الناصري: تاريخ الامبراطورية الرومانية السياسي والحضاري. دار النهضة العربية. القاهرة. مصر. الطبعة الثانية 1991 م.
- 11- إ. س. سفينسيسكايا: المسيحيون الأوائل والإمبراطورية الرومانية: خفايا القرون. ترجمة: د. حسان مخائيل اسحق. دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة. دمشق. سوريا. الطبعة الثانية 2007 م.

- 12- شارل جيبيير: المسيحية: نشأتها وتطورها. ترجمة: د. عبد الحلیم محمود. منشورات المكتبة العصرية. صيدا. لبنان. بدون تاريخ نشر.
- 13- دانيال مرجيرا: تاريخ المسيحية الأول: قراءة جديدة في أعمال الرسل. ترجمة: الأب كميل ولیم. دار الثقافة. القاهرة. مصر. الطبعة الأولى 2009 م.
- 14- د. سعيد عبد الفتاح عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. دار النهضة العربية. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى 1976 م.
- 15- موريس بيشوب: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. ترجمة: علي السيد علي. المجلس الأعلى للثقافة في مصر. القاهرة. مصر. الطبعة الأولى 2005 م.
- 16- نيفين ظافر حسيب الكردي: الأوضاع الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية في الغرب الأوروبي من القرن التاسع حتى القرن الحادي عشر. أطروحة ماجستير مقدمة إلى قسم التاريخ والآثار بكلية الآداب في الجامعة الإسلامية بغزة. فلسطين. 2011 م.
- 17- جفري برون: تاريخ أوروبا الحديث. ترجمة: علي المزروقي. الأهلية للنشر والتوزيع. عمان. الأردن. الطبعة الأولى. 2006 م.
- 18- كرين برينتون: تشكيل العقل الحديث. ترجمة: شوقي جلال. مراجعة: صدقي حطاب. من إصدارات عالم المعرفة. سلسلة شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت. دولة الكويت. الطبعة الأولى 1982 م.

- 19- د. الطيب بوعزة: نقد الليبرالية. مطبوعات مجلة البيان. الرياض . السعودية. الطبعة الأولى 2009 م.
- 20- د. نبيل ياسين: تاريخ الديمقراطية: حكم القوانين لا حكم الاشخاص. منشورات مركز البحرين للدراسات في لندن. 2012 م.
- 21- أ. م. بوشنسكي: الفلسفة المعاصرة في أوروبا. ترجمة: د. عزت قرني. من إصدارات عالم المعرفة، وهي سلسلة كتب شهرية تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت. الطبعة الأولى 1992 م.
- 22- ف. فولغين: فلسفة الأنوار. ترجمة: هنريت عبودي. مراجعة: جورج طرايشي. دار الطليعة للطباعة والنشر. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى. 2006 م.
- 23- رونالد سترومبرج: تاريخ الفكر الأوروبي الحديث (1601- 1977). ترجمة: أحمد الشيباني. دار القارئ العربي. القاهرة. مصر. الطبعة الثالثة. 1994 م.
- 24- روبرت ووكلر: روسو: مقدمة قصيرة جدا. ترجمة: أحمد محمد الروبي. مراجعة: مصطفى محمد فؤاد. مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. القاهرة. مصر. الطبعة الأولى 2015 م.
- 25- د. لويس عوض: الثورة الفرنسية. الهيئة المصرية للكتاب. القاهرة. مصر. الطبعة الأولى 1992 م.
- 26- غوستاف لوبون: روح الثورات والثورة الفرنسية. ترجمة: عادل زعيتر. كلمات عربية للترجمة والنشر. القاهرة. مصر. الطبعة الأولى. 2013 م.

- 27- جان توشار: تاريخ الأفكار السياسية: الاشتراكية، الليبرالية، القومية، السلفية. ترجمة: د. ناجي الدراوشة. دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر. دمشق. سوريا. الطبعة الأولى 2010 م.
- 28- نغم عاصم عثمان: الرومانسية: بحث في المصطلح وتاريخه ومذاهبه الفكرية. المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية. النجف. العراق. الطبعة الأولى 2017 م.
- 29- د. طلال حامد خليل: المرتكزات الفكرية لليبرالية: دراسة نقدية. مجلة (دفاتر السياسة والقانون) الصادرة عن كلية الحقوق والعلوم السياسية جامعة قاصدي برباح. الجزائر. العدد 15، يوليو 2016 م.
- 30- جون ستيوارت ميل: أسس الليبرالية السياسية. ترجمة: د. إمام عبد الفتاح إمام ود. ميشيل متياس. مكتبة مدبولي. القاهرة. مصر. الطبعة الأولى 1996 م.
- 31- جوزيف. أ. شومبيتر: الرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية. ترجمة: حيدر حاج اسماعيل. المنظمة العربية للترجمة. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى 2011 م.
- 32- د. إمام عبد الفتاح إمام: المنهج الجديد عند هيغل. دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. لبنان. الطبعة الثالثة 2007 م.
- 33- مجموعة مؤلفين: الماركسية الغربية وما بعدها: التأسيس والانعطاف والاستعادة. إشراف: د. علي عبود المحمداوي. دار ومكتبة عدنان. بغداد. العراق. الطبعة الأولى 2014 م.
- 34- جان بول سارتر: قضايا الماركسية. ترجمة: جورج طرايشي. بدون تاريخ ومكان النشر.

35- حنة أرندت: في الثورة. ترجمة: عطا عبد الوهاب. مراجعة: رامز بورسلان. المنظمة العربية للترجمة. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى 2008 م.

35- كارل بوبر: درس القرن العشرين. الترجمة: د. الزواوي بغورة ود. لحضر مذبوح. الدار العربية للنشر والعلوم. الجزائر. الطبعة الأولى 2008 م.

36- أندرو هيود: مدخل إلى الأيديولوجيات السياسية. ترجمة: محمد صفرا. المركز القومي للترجمة. القاهرة. مصر. الطبعة الأولى 2012 م.

37- د. عبد المجيد عرسان العزام ود. محمود ساري الزعبي: دراسات في الفكر السياسي، دار الحامد. عمان. الأردن. الطبعة الأولى 1988 م.

38- جواد السعيد: نظرية النخبة في المفهوم السياسي. موقع مركز النور للدراسات. الرابط على شبكة الإنترنت:

<http://www.alnoor.se/article.asp?id=180826>